من وصايا الرحمن في سورة الأنعام

إعداد الدكتورة
منيرة محمد محمد العيسوي
مدرس التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات – بالزقازيق – جامعة الأزهر

وصايا الرحمن في سورة الأنعام

منيرة محمد محمد علي العيسوي
قسم التفسير وعلوم القرآن ، شعبة أصول الدين ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق ، جامعة الأزهر ، مصر .
البريد الإلكتروني : moniraelesawi.67@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف البحث إلى بيان أهم مقومات ودعائم الدين ألا وهي تثبت عقيدة التوحيد والعبودية لله تعالى وغرسها في نفوس المؤمنين تمهيدا لتقبلهم ما يملى عليهم من عبادات وتشريعات تنبع من الوصايا التي تناولتها سورة الأنعام من خلال وصية القرآن بالأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما وإكرامهما، واقتران ذلك بعبادته سبحانه وتعالى مما يدل على عظم هذه الوصية التي جعلها الله لهما في حياتهما وبعد مماتهما ، وكذلك وصية النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر وضمان الرزق من الخالق سبحانه وتعالى ، وكذا وصية التحذير من قربان الفواحش ، والنهي عن قتل النفس بغير حق والحفاظ على مال اليتيم وحمايته له حتي يبلغ الرشد ، والوفاء وصيانة العهد في كل قول وعمل ، واتباع كل هذه الوصايا يمثل الخير كل الخير للأفراد ويساعد على قيام المجتمع الإسلامي السليم .

الكلمات المفتاحية : وصايا ، سورة الأنعام ، الشرك ، الإحسان ، إملاق ، قتل النفس ، العدل.

OneThe commandments of the Most Merciful in Surat Al-An'am

Munira Muhammad Muhammad Ali Al-Issawi
Department of Interpretation and Sciences of the Qur'an, Division of Fundamentals of Religion, Zagazig College of Islamic and Arab Studies for Girls, Al-Azhar University, Egypt.
Email: moniraelesawi.67@azhar.edu.eg

Abstract

The research aims to clarify the most important foundations and pillars of religion, namely, assuring the doctrine of monotheism and servitude to God Almighty and implants it in the hearts of the believers in preparation for their acceptance of the worships and legislations dictated to them and that stem from the commandments of the Qur'an being dealt with in Surat Al-An'am that command kindness to parents, honoring them and glorifying them, together with worshiping Him, Glory be to Him And the Almighty. This indicates the greatness of this commandment that God made for them in their lives and after their death Likewise. It also refers to the commandments that forbid the killing of children for fear of poverty and guarantee sustenance from the Creator, Glory be to Him, the Almighty, as well as the commandment that warn against immoral sacrifices, and forbid self-killing without right. Included also are the commandments that preserve and protect the orphan's money for him until he reaches adulthood and that fulfill and preserve the covenant in every word and deed. Following all these commandments represents all that is good for individuals and helps the establishment of a healthy Islamic society.

Keywords: Commandments, Surat Al-An'am, Polytheism, Benevolence, Impoverishment, Self-killing, Justice.

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيد المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد النبي الأمى الكريم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

لقد خلق الله جل وعلا الإنسان ووهبه من النعم ما جعله مستحقاً للتكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1] .

واستخلفه في الأرض ووهبه العقل والعلم ليميز الحق من الباطل، وسخر له الكون ليستعين بما خلقه الله فيه على ما خُلق لأجله من عبادة الخالق الواحد، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

ثم بعث سبحانه الرسل وأنزل معهم الكتاب ليبينوا للناس رسائل ربهم ويكونوا عوناً لهم على السير في طريق الحق، قال تعالي: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3] .

ثم كان خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ، المبعوث برسالة تهدى إلى الصراط المستقيم متضمنة لتشريعات تنظم الحياة وتضع قواعد تعامل البشر مع خالقهم أولا وإفراده بالعبادة ثم تعاملهم مع بعضهم وصيانتهم للحقوق والدماء والعهود وكل ما من شأنه أن يوجههم إلى الصراط المستقيم .

---

(١) سورة الإسراء – الآية (٧٠) .
(٢) سورة الجاثية – الآية (١٣) .
(٣) سورة النساء – الآية (١٦٥) .

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

وقد تناولت سورة الأنعام أهم وصايا الرحمن لعباده لبناء عقيدة سليمة وحياة مليئة بالطاعة الموصلة لصراطه المستقيم وعاقبة السير إليه الوصول للسعادة في الدنيا والآخرة .

وسأتناول هذه الوصايا بالدراسة والتحليل وأسأله سبحانه التوفيق والسداد والقبول إنه سبحانه نعم المولي ونعم النصير .

سبب اختياري لهذا الموضـــوع :

تثبيت عقيدة التوحيد في قلب كل مؤمن وكذلك المعاملات السليمة بينه وبين من حوله في أسرته من الوالدين وغيرهما ورعاية حقوق اليتامى وحفظ العهود وإتباع الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة .

منهجى فى البحث : اخترت المنهج الإقرائى والتحليلى لبعض آيات القرآن الكريم التى تتعلق بالموضوع .

وقد اشتمل الموضوع على مقدمة وتمهيد وعشرة مباحث وخاتمة أما المقدمة فتشمل أسباب اختيار الموضوع ومنهج البحث فيه وأما التمهيد ففيه تعريف لمفهوم الوصية .

وأما المباحث فهـي :

المبحث الأول : الوصية الأولي (تحريم الإشراك بالله) .

المبحث الثاني : الوصية الثانية (الإحسان إلى الوالدين) .

المبحث الثالث : الوصية الثالثة (النهى عن قتل الأولاد خشية الفقر) .

المبحث الرابع : الوصية الرابعة (النهي عن قرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

(١) سورة فصلت – الآيتان (٤١-٤٢) .

المبحث الخامس : الوصية الخامسة (النهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق) .

المبحث السادس : الوصية السادسة (الأمر بحفظ مال اليتيم) .

المبحث السابع : الوصية السابعة (حفظ الكيل والميزان) .

المبحث الثامن : الوصية الثامنة (العدل في القول والفعل) .

المبحث التاسع : الوصية التاسعة (الوفاء بالعهد) .

المبحث العاشر : الوصية العاشرة (الالتزام بوصايا القرآن الكريم هي الصراط المستقيم).

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث .

وأخيراً فهرس المصادر والمراجع .

والله أسأل التوفيق والسداد والإخلاص والقبول وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

التمهيـــد

تعريف الوصية :

[الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ من قولهم: أرض متصلة النبات، ويقال أوصاه ووصاه .

قال تعالي: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ ﴿البقرة/١٣٢﴾

وتواصي القوم: إذا أوصي بعضهم إلي بعض .

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿العصر/٣﴾[١] .

وصى: أوصي الرجل ووصاه: عهد إليه .

وأوصيت له بشئ وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك وتواصي القوم أى أوصى بعضهم بعضا.

والوصية: ما أوصيت به، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت .

وقوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾[٢] .

معناه: يفرض عليكم لأن الوصية من الله إنما هي فرض، والدليل علي ذلك قوله تعالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾[٣]

وهذا من الفرض المحكم علينا .

وتواصوا: أوصي بعضهم بعضا][٤] .

الوصية اصطلاحا : تمليك مضاف إلى بعد الموت والمملك هو الموصي ومن له التمليك هو الموصى له .[٥]

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن – تأليف العلامة الراغب الأصفهاني – ٨٧٣ – ٨٧٤ باختصار – تحقيق : صفوان عدنان داوودي – دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت – ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) سورة النساء – الآية (١١) .

(٣) سورة الأنعام – الآية (١٥١) .

(٤) لسان العرب – للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري – ٢٢٧/١٥ باختصار – دار صادر – بيروت – الطبعة السادسة – ٢٠٠٨ م .

(٥) ينظر التعريفات للشريف الجرجاني ت(٨١٦هـ) ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٢٥٢ (بتصرف) .

وينظر : التعريفات الفقهية ، محمد عميم الإحسان البركتي ، ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، ص ٢٣٧ .

المبحث الأول

الوصية الأولي (تحريم الإشراك بالله)

من أهم مقومات الدين وقواعده التي يقوم عليها تثبيت عقيدة التوحيد والعبودية لله سبحانه وحده وغرس هذه العقيدة في قلوب المؤمنين .

وقد عمل القرآن الكريم في مرحلته المكية علي غرس هذا الأساس وتقويته وتدعيمه وتثبيت أركانه التي تقوم عليها بعد ذلك التشريعات كلها وبيان الحلال والحرام.

فإذا ثبتت العقيدة السليمة في قلب المؤمن وآمن بالله وحده وأفرده بالعبادة دون سواه أصبح صالحا سهل الانقياد والتلقي للأوامر والنواهي طالبا لرضاه سبحانه معرضا عما سواه.

وقد عبرت سورة الإخلاص عن ذلك قال تعالي : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١) .

ومن الآيات التي تدل علي عظمة الخالص وقدرته وصنعه البديع في الكون الذي يدل علي الخالص الواحد والتي بدأت بها سورة الأنعام قوله تعالي : ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٢)

وقوله سبحانه : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣)

---

(١) سورة الإخلاص .
(٢) سورة الأنعام الآيات (١-٣) .
(٣) سورة الأنعام – الآيات (١٣-١٤) .

وقوله سبحانه : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (٢) .

وقد اشتملت سورة الأنعام علي أسس وقواعد الدين التي يقوم عليها حتي يكون ثابتاً في قلوب المؤمنين وقد جاءت علي شكل وصايا وأوامر ونواهي لما ينبغي الحرص عليه والتمسك به وأيضاً لما ينبغي الانتهاء عنه .

أمر الله سبحانه عباده بعبادته وحده لأنه الخالق لا شريك له .

والعبادة في اللغة: عبد [العبد: الإنسان، حراً كان أو رقيقاً، يُذهب بذلك إلي أنه مربوب لباريه، جل وعز .

وأصل العبودية الخضوع والتذلل. والعابد: الُموَحِّد، والعبادة: الطاعة

ومعني العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع .](٣)

[العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالي](٤) .

والعبادة شرعاً: [العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة. ودين الله: عبادته وطاعته والخضوع له .

فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصله الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار

(١) سورة الأنعام – الآيتان (١٧-١٨) .
(٢) سورة الأنعام – الآيتان (١٠٢-١٠٣) .
(٣) لسان العرب – للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى المصرى - ٢٧٠/٣ – ٢٧٣ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ط٣ – ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .
(٤) مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – صـ٥٤٢ .

والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والبهائم، والدعاء والذكر والتلاوة، وأمثال ذلك: من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله، وخشيه الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، قال الله تعالي ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿الذاريات/٥٦﴾ .

وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه :﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿الأعراف/٥٩﴾ .

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لأقوامهم][1] .

أسس العقيدة الإسلامية :

المعرفة بالله تعالي والإيمان به سبحانه والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر والتسليم به .

فائدة الإيمان بأسس العقيدة الإسلامية :

للإيمان بأسس العقيدة الإسلامية فوائد عظيمة :

فالمعرفة بالله: من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير وتربي ملكة المراقبة، وتبعث علي طلب معالي الأمور وأشرافها، وتنأي بالمرء عن محقرات الأعمال وسفاسفها .

(١) الفقه الإسلامي وأدلته – تأليف الدكتور/ وهبه الزحيلي – الشامل للأدله الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها وفهرسة ألفبائية للموضوعات وأهم المسائل الفقهية – ٢٣١/١ – ٢٣٢ – دار الفكر – دمشق – سورية، دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – الطبعة الرابعة معدلة – ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

والمعرفة بالكتب السماوية: إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كي يصل بالسير عليه إلي كماله المادي والأدبي .

والمعرفة بالرسل: إنما يقصد بها تَرَسُّم خطاهم، والتخلق بأخلاقهم والتأسي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة، والحياة النظيفة التي أرادها للناس .

والمعرفة باليوم الآخر: هي أقوي باعث علي فعل الخير، وترك الشر .

والمعرفة بالقدر: تزود المرء بقوى وطاقات تتحدي كل الصعاب وتصغر دونها الأحداث الجسام .

وهكذا : يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك، وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى فضلاً عن أنها حقائق ثابتة، وهي تعد من أعلي المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها علي الإطلاق][1] .

معني التوحيد لغـة :

[وَحَدَهُ: الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل علي الإنفراد، من ذلك الوَحَدَة][2].

قال الراغب: [الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشئ الذي لا جزء له البتة ثم يطلق علي كل موجود إنه ما من عدد إلا ويصح أن يوصف به فيقال عشرة واحدة ومائة واحدة وألف واحد، وإذا وصف الله بالواحد فمعناه: هو الذي لا يصح عليه التجزى ولا التكثر ولصعوبة هذه الوحدة، قال تعالي: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ ﴿الزمر /٤٥﴾، والوَحَدُ المفرد، ويوصف به غير الله، وأحد مطلقاً لا يوصف به غير الله تعالي][3] .

(١) العقائد الإسلامية – سيد سابق – ص ١١ – طبعة الفتح للإعلام العربي– القاهرة – الطبعة العاشرة – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

(٢) معجم مقاييس اللغة – لأبى الحسين أحمد ابن فارس ابن زكريا – توفى سنة ٣٩٥ هـ – ٩٠/٦ – ضبط وتحقيق : عبدالسلام محمد هارون – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١١هـ / ١٩٩١ م .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن – للراغب الأصفهاني ص ٨٥٧ – ٨٥٨ .

إذاً فإن [هذه المادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشئ بذاته أو بصفاته أو بأفعاله وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه][1] .

معني التوحيد اصطـلاحاً :

[هو اعتقاد أنه واحد لا شريك له ونفي المثل والنظير عنه والتوجه إليه وحده بالعبادة، وإذا قيل الله واحد أو أحد كان معني ذلك انفراده بماله من ذات وصفات وعدم مشاركة غيره له فيها، فهو واحد في إلهيته فلا إله غيره، وواحد في ربوبيته فلا رب سواه، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلا له سبحانه][2] .

والقرآن ملئ بالآيات التي تدل علي وحدانية الله سبحانه وتعالي ومن أقوي الأدلة علي ذلك أقصر سورة في القرآن ألا وهي سورة الإخلاص. قوله تعالي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿الإخلاص١/٤﴾ فعدد آياتها أربع آيات لكنها تدل أبلغ الدلالة علي وحدانية الله سبحانه ونفي الشريك والولد عنه سبحانه.

مقصود السـورة :

[بيان الوحدانية، وذكر الصمد، وتنزيه الحق من الولد والوالد والولادة، والبراءة من الشركة والشريك في المملكة][3] .

فالله سبحانه واحد لا شريك له ولا معبود سواه ، واحد في ذاته وأفعاله وصفاته وقد ثبت ذلك في آيات القرآن الكريم .

---

(١) دلائل التوحيد - للعلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي – توفي ١٣٣٢ هـ - ضبط وتعليق وتخريج/ الشيخ خالد عبد الرحمن العك – ص ٤٨ – دار النفائس – الطبعة الأولي ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(٢) المرجع السابق - ص ٤٩ .

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي – توفي سنة ٨١٧ هـ - ٥٥٣/١ تحقيق الأستاذ محمد علي النجار – الطبعة الثالثة – القاهرة – ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .

أما العقل فلا يستطيع أن ينكر أن الله واحد لأنه لو كان له شريك لكان الأمر لأحدهما دون الآخر وإذا كان الأمر لأحدهما فهو الإله فما هي صفة الآخر .

والدليل العقلي هو: [أنه لو تعدد الإله كأن يكون هناك إلهان، لما وجد شئ من هذا العالم، لكن عدم وجود شئ من العالم باطل، لأنه موجود بالمشاهدة، فما أدي إليه وهو التعدد باطل، وإذا بطل التعدد، ثبتت الوحدانية، وذلك لأنه لو وجد إلهان إما أن يتفقا، وإما أن يختلفا، فإن اتفقا: فلا جائز أن يوجداه معاً، لئلا يلزم اجتماع مؤثرين علي أثر واحد، ولا جائز أن يوجداه مرتباً بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر لئلا يلزم تحصيل الحاصل، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض والآخر البعض للزم عجزهما حينئذ، لأنه لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سدَّ علي الآخر طريق تعلق قدرته به، فلا يقدر علي مخالفته، وهذا عجز، وهذا يسمي برهان التوارد، لما فيه من تواردهما علي الشئ، وإن اختلفا. بأن أراد أحدهما إيجاد العالم والآخر إعدامه فلا جائز أن ينفذ مرادهما لئلا يلزم اجتماع الضدين، ولا جائز أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، للزم عجز من لم ينفذ مراده، والآخر مثله، لانعقاد المماثلة بينهما، ويحكي عن ابن رشد[١]: أنه إذا نفذ مراده، دون الآخر كان الذي نفذ مراده هو الإله دون الآخر وتم دليل الوحدانية، وهذا يسمي برهان التمانع][٢] .

آثار الشرك بالله وأضراره :

[إن أكبر الكبائر الإشراك بالله، ذلك لأن الشرك ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض، وحجب متلاطمة لا يقر لها قرار، فهو يجعل الإنسان عبد للمخلوق، وهو لا يعبد المخلوق إلا جلباً لفائدة أو دفعاً لضرر، فهو في الواقع عبد لمصلحته، وبالتالي

١- ابن رشد [محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، أبو الوليد الفيلسوف من أهل قرطبة، له مؤلفات كثيرة منها فلسفة بن رشد، والتحصيل في اختلاف مذاهب العلماء، وكان دمث الأخلاق حسن الرأي، توفي سنة ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م] .

- الأعلام – خيرالدين الزركلى – ٥ / ٣١٨ باختصار – دار العلم للملايين – مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر – بيروت – لبنان – الطبعة السادسة عشر – كانون الثانى – يناير ٢٠٠٥م .

٢- المختار من شرح البيجوري علي الجوهرة المسمي تحفة المريد علي جوهرة التوحيد – العلامة شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري، ص ٧٣ – الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية – طبعة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .

هو عبد لنفسه، وعبادة النفس معناها أن الشخص غير صالح ليكون عضواً كريماً عاملاً علي الرقي بالجماعة الإنسانية، هادماً لأركانها ساعياً في شقائها دون أن يدري، بل إن الشرك يقلب الأوضاع، فيجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، والخالق مخلوق، والمخلوق خالقاً، وعلي هذا الأساس لا يمكن أن تبني قواعد الجماعات علي أسس سليمة، ذلك لأن العلاقات الإنسانية تكون مبنية علي مستلزمات الشرك، وهو الجشع، والتربص، والحقد، والكذب، وسفك الدماء، والعدوان، والاستعباد والإذلال، كل ذلك يؤدي إلي انفراط نظام العقد الإنساني الذي يتحول إلي فوضي لا ضابط لها ولا رابط، يسودها الخوف ويخيم عليها القلق، وتتخللها الحروب التي لا تنتهي، فحينئذ تصبح الحياة شقاء لا سعادة فيها، وجحيماً لا يطاق، يعذب فيه البشر بعضهم بعضاً][1].

وفي الحديث عن الوحدانية التي هي من صفاته تعالي :

قال العلامة السفارينى[2] [يجب علي كل مكلف شرعاً أن يعرف الله تعالي بصفات الكمال ويجزم بأنه سبحانه وتعالي واحد لا يتجزأ ولا ينقسم فرد صمد لا نظير له أى لا مثل له ولا شبه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا شريك له في ملكه ولا وزير له تعالي، والوزير حبا الملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه، فلا وزير

(١) دعوة التوحيد – أصولها – الأدوار التي مرت بها – مشاهير دعاتها] – محمد خليل هرَّاس – ص ٧٥ – ٧٦ – دار الباز للنشر والتوزيع – مكة المكرمة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤٠٦ هـ.

(٢) العلامة السفاريني : [هو محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الشهرة والمولد النابلسي الحنبلي الشيخ الإمام والحبر البحر الهمام الأوحد العلامة العالم العامل الفهامة صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة أبو العون شمس الدين ولد بقرية سفارين من قري نابلس سنة أربع عشرة ومائة وألف (١١١٤) ونشأ بها وتلا القرآن العظيم ثم رحل إلي دمشق لطلب العلم وحصَّل في الزمن اليسير ما لم يحصله غيره ورجع إلي بلده ثم توطن نابلس واشتهر بالفضل والذكاء ودرس وأفتي ومن تآليفه شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ، وتحبير الوفاء في سيرة المصطفي وكانت وفاته عام ١١٨٨ – أو عام ١١٨٩ – توفي بنابلس ودفن بتربتها الشمالية] .

- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية – تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي – ص مقدمة الكتاب (ترجمة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي مؤلف هذا الكتاب) طبعة المكتب الإسلامي بيروت – دار الخاني الرياض – الطبعة الثالثة – ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

للبارى جل شأنه يحمل ثقله ويعينه في تدبير خلقه ولا ظهير له في صنعه ولا معين له في ملكه][1] .

أقسام التوحيـــد :

[التوحيد عند السلف نوعان :

الأول: توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد بأن رب العالم وخالقه واحد وليس اثنين، وهو الرب سبحانه الذي جُبلت الفِطَر السليمة علي الإقرار به والخضوع له والإيمان بما له من الأسماء والصفات علي وفق ما جاء في الكتاب والسنة، فتوحيد السماء والصفات داخل في توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه أن يعبد الله وحده لا يشرك بعبادته أحد من خلقه، وبهذا النوع يتحقق معني كلمة التوحيد: " لا إله إلا الله " .

وهذا النوع من التوحيد هو دعوة كل رسول إلي قومه من لدن آدم إلي محمد عليه السلام، ومن أجله خلق الله الخلق، وجعل الجنة والنار، وفرَّق الناس إلي شقيٍّ وسعيد، ولا يقبل إيمان المرء إلا بالإقرار به قولاً وعملاً، وهو يتضمن توحيد الربوبية.

وقد عُنى القرآن بتقرير هذا النوع من التوحيد، والبرهنة عليه بالأدلة العقلية والبراهين الصحيحة، لأن الشرك الذي وقع في جميع الأمم كان في هذا النوع، فإن عامة مشركي الأمم كانوا مقرين بربوبيته سبحانه، ولكن مع إقرارهم بربوبيته قد أشركوا بعبادته غيره][2] .

وقد وافقه في هذا التقسيم صاحب كتاب العقيدة الإسلامية وذهب إلي أن :

[التوحيد قسمان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية :

---

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية ١١٤/١– ١١٦ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية – تأليف الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي – المتوفي سنة ٧٩٣ هـ - حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط – ٢١/١ – ٢٢ . ط مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الحادية عشرة – ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

ولا يكون الإنسان مؤمناً حقاً إلا إذا أقرَّ بهما جميعاً وعمل بمقتضاهما .

أما توحيد الربوبية: فهو الاعتقاد بأن الله وحده هو الخالق للعالم، المتصرف فيه بالرزق، والإحياء، والإماتة، وغير ذلك .

أما توحيد الألوهية: فهو إفراد الله تعالي وحده بالعبادة، والتوجه إليه بالدعاء .

ولأن من تمام حقيقة التوحيد توحيد الألوهية، أى: إفراد الخالق وحده بالعبادة، كان شعار الدخول في الإسلام: " أشهد أن لا إله إلا اله وأشهد أن محمداً رسول الله " أى : أقرّ وأعترف أنه لا معبود بحق إلا الله][1] .

ومن العلماء من قسم التوحيد إلي ثلاثة أقسام :

[توحيد في الذات، والأسماء والصفات، وتوحيد في البربوبية، وهي اختصاصه تعالي، وتفرده بالخلق، والرزق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد في الألوهية، أى في العبادة، وهو اختصاصه تعالي بسائر العبادات، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة والأنبياء، والصالحين، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات][2] .

[وتوحيد الصفات أن يوصف الله تعالي بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه][3] .

معنى توحيد الربوبيـة : [إن لفظ " الرب " يطلق علي عدة معان، منها السيد، والمالك، والمربي والمصلح، والمعبود بحق سبحانه وتعالي، إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق علي غيره إطلاقاً مجازياً، إضافياً لا غير .

---

(١) العقيدة الإسلامية – أركانها – حقائقها – مفسداتها – تأليف الدكتور مصطفي سعيد الخن – محي الدين ديب مستو – ص ١٧١ – ١٧٣ باختصار – طبعه دار الكلم الطيب – دمشق حلبوني – الطبعة الثالثة – ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .

(٢) عقيدة المؤمن – أبو بكر جابر الجزائرى – كتاب يبحث العقيدة الإسلامية علي ضوء الكتاب والسنة ويجلي حقائقها بأسلوب علمي ميسَّر واضح، علي أساس من البرهنة الصادقة التي تقوم علي الأدلة المنطقية والنقلية الشرعية – ص ٥٥ – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – بدون بيان عن الطبعة .

(٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية – تأليف العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي – ١٢٩/١ .

ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ " الرب " اشتق اسم الربوبية التي تعني الخلق، والرزق، والملك، والسيادة، والتدبير .

ولكون الله تعالي هو الرب الحق للعالمين، أختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيده فيها، وامتنع عنه الشريك فيها، ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفي الشريك عنه تعالي في صفات الربوبية الحقة، والتي هي الخلق، والرزق، والملك، والتدبير الذي من لوازمه الإماتة والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والإعزاز والإذلال][1] .

فطرية الإقرار بالربوبيـة :

[وعقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير الله تعالي، الرب الحق الذي لا رب غيره، ولا إله سواه، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية، وعجزهم عنها، لأن المخلوق لا يخلق، والمملوك لا يملك .

ويكفي شاهداً علي هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن وهم يُدعون إلي عبادة الله وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشئ من صفات الربوبية وحقائقها، مع شدة تعصبهم لهذه الآلهة وتقديسهم لها، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلا عن غيره من التماثيل والأصنام، للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدعونها لهم بحال، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق. والرزق، والتدبير، والملك][2] .

(١) عقيدة المؤمن – أبو بكر جابر الجزائري – ص ٥٦ باختصار .
(٢) المرجع السابق – ص ٥٦ – ٥٧ .

معني توحيد الإلهية :[معناه إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة وإخلاص الدين له وحده. فإن الإلهية نسبة إلي الإله بمعني المعبود: يقال أله يأله إلهة وألوهة وألوهية، بمعني عبد عبادة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الإلهية والعبودية علي خلقه أجمعين .

والإله اسم للمعبود مطلقاً بحث أو بغير حق، فهو يطلق علي الله عز وجل كما يطلق علي غيره من المعبودات الباطلة وجمعه آلهة .

وأما الله فهو مختص بالمعبود بحق لا يطلق علي غيره، فهو يشبه أن يكون علماً عليه](١).

[أساليب القرآن في الدعوة إلي توحيد الإلهية :

منها التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله وإظهار حالها من العجز الشنيع والفقر البالغ والغفلة عمن يدعوها ويفزع إليها كقوله تعالي: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (٢) .

ومنها تصوير ما سيكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الإتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة وتنصل المعبودين من جناية هؤلاء العابدين وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم .

وذلك مثل قوله تعالي: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ

(١) دلائل التوحيد – للعلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي – المتوفي سنة ١٣٣٢ هـ - ضبط وتعليق وتخريج الشيخ خالد عبد الرحمن العك – المدرس في إدارة الإفتاء العام بدمشق – ص ٧٧ – دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .
(٢) سورة الأعراف الآيتين ١٩١ – ١٩٢ .

تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [(١)](٢).

كيف نحقق توحيد الإلهية :

إذا كان توحيد الإلهية يقوم علي صرف جميع العبادات لله والإخلاص له فيها، فلابد إذاً من معرفة أنواع العبادات التي تعبدنا الله عز وجل بها، والتي أمرنا أن نتقرب إليه بها .

والعبادات علي كثرتها وانتشارها ترجع إلي أربعة أنواع :

النوع الأول : العبادات القلبيـة .

هي التي ترجع إلي عمل القلب وحده وهي أم أنواع العبادات، وتعتبر أساساً لما وراءها من العبادات القولية والعملية .

فمنها الحب: قال الله تعالي: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ (٣)] (٤) .

ومما قيل في المقصود من اتخاذ الأنداد لله في هذه الآية وحبهم كحب الله :

[أخبر تعالي أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالي فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً فهذا ندٌ في المحبة، لا في الخلق والربوبية. فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند. بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم .

(١) سورة البقرة الآيات ١٦٥ – ١٦٧ .
(٢) ينظر دلائل التوحيد – للعلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمي – ٧٩/١ – ٨٣ باختصار .
(٣) سورة البقرة الآية ١٦٥ .
(٤) دلائل التوحيد – للعلامة القاسمي – ٨٥ – ٨٦ .

ثم قال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، وآلهتهم التي يحبونها، ويعظمونها من دون الله .

والثاني : والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله. فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة أشد من المحبة المشركة .

والقولان مرتبان علي القولين في قوله تعالي ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ فإن فيه قولان :

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة لله، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً .

والثاني: أن المعني يحبون أندادهم، كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم][1] .

ومن العبادات القلبية : [الخوف من الله تعالي :

قال تعالي: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]

وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[3]

إلي غير ذلك من الآيات التي تفيد أن أعبد الناس لله وأكملهم به إيماناً أخوفهم من الله وأشدهم له خشية .

ولكن الخوف الذي هو عبادة كان ناشئاً عن معرفة صحيحة بالله عز وجل وماله من صفات الجلال والقهر التي تملأ جو النفس برهبة وتحملها علي المسارعة في مرضاته وتجنب مساخطه .

---

(١) التفسير القيم – للإمام ابن القيم (٦٩١ – ٧٥١ هـ) – ص ١٤٠ – حققه / محمد حامد الفقى، جمعه / محمد أويس الندوى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٢) سورة التوبة - الآية ١٣ .

(٣) سورة الرحمن - الآية ٤٦ .

ولكن ينبغي أن لا يفرط في الخوف فينقلب يأساً وقنوطاً، بل يجب أن يكون مصحوباً بالرجاء والأمل وحسن الظن بالله .

ومنها الإخلاص لله تعالي :

وهو أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله وابتغاء مرضاته من غير نظر إلي مغنم أو جاه أو أن يقول عنه الناس إنه محسن أو شجاع أو نحو ذلك فإن ذلك رياء يحبط العمل ويفسده .

كما قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلي الله ورسوله فهجرته إلي الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلي دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلي ما هاجر إليه)[١].

ومنها التوكل علي الله تعالي :

وحقيقته الثقة بكفاية الله تعالي وحسن تدبيره والاعتماد بالكلية عليه وتفويض الأمور كلها إليه مع الإيمان بقضائه وقدره والاعتقاد بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومع الأخذ في الأسباب التي جعلها الله موصلة بحكمته إلي مسبباتها .

فالتوكل لا يقوم علي إهمال الأسباب ولكن يقوم علي إعمالها واحترامها فإن كونها أسباباً إنما هو بمشيئة الله وحكمته .

وقد ورد الأمر بالتوكل في كثير من الآيات والأحاديث، ففي سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢] والاستعانة هي التوكل .

١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للحافظ أحمد ابن على ابن حجر العسقلانى – ٣٧٣ – ٨٥٢ هـ - كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي إلي رسول الله ﷺ، وقول الله عز وجل ذكره ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (النساء/١٣٦) – ١٥/١ – حديث رقم ١، وكتاب الإيمان – باب ما جاء إنما الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوي – ١٨٤/١ – حديث رقم ٥٤ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م .

٢- سورة الفاتحة - الآية ٥ .

وفي الحديث: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب. فقيل: من هم يا رسول الله ؟ قال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون)[1].

ومنها الصـــــبر :

وحقيقته حبس النفس علي ما تكره مما فيه مشقة أو ألم انتظاراً لموعود الله عز وجل وهو إما صبر علي طاعة الله والقيام بأوامره وهو أعلي أنواع الصبر، وإما صبر عن محارم الله وكف النفس عنها، وإما صبر علي المصيبة والتسليم فيها لقضاء الله وقدره، ومن هنا كان الصبر لازماً للعبد في كل أحواله وكان نظام العبادات كلها لا قيام لها بدونه .

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام أبى زكريا يحيي ابن شرف النووي – المتوفى ٦٧٦ هـ - كتاب الإيمان – باب الدليل علي دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب – ٧٣/٣ – ٧٤ – حديث رقم ٢١٨ .

- ولفظه عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال " يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب " قالوا " من هم؟ يا رسول الله! قال " هم الذين لا يسترقون. ولا يتطيرون ولا يكتوون. وعلي ربهم يتوكلون " .

(٢) قال الإمام النووي في شرح الحديث: [اختلف العلماء في معني هذا الحديث فقال الإمام أبو عبد الله المازري: احتج بعض الناس بهذا الحديث علي أن التداوي مكروه ومعظم العلماء علي خلاف ذلك، واحتجوا بما وقع في أحاديث كثيرة من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة كالحبة السوداء وغير ذلك، وبأنه ﷺ تداوي، وبما علم من الاستشفاء برقاه، فإذا ثبت هذا حمل ما في الحديث علي قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها ولا يفوضون الأمر إلي الله تعالي، قال القاضي عياض: قد ذهب الي هذا التأويل غير واحد ممن تكلم علي الحديث ولا يستقيم هذا التأويل، وإنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة يدخلون الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تضئ إضاءة القمر ليلة البدر، وذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلي أن المراد من تركها توكلاً علي الله تعالي ورضاء بقضائه وبلائه، قال الخطابي: وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان .

وذهب بعضهم إلي تخصيص الرقي والكي من بين أنواع الطب بمعني، وأن الطب غير قادح في التوكل، إذ تطبب رسول الله ﷺ والفضلاء من السلف، وقد أباحهما النبي ﷺ وأثني عليهما، وقد تطبب ﷺ في نفسه وطبب غيره ولم يكتو وكوي غيره، والظاهر من معني الحديث ما اختاره الخطابي ومن وافقه، وحاصلة أن هؤلاء كمل تفويضهم إليه الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها، وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز .

- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

- قوله ﷺ : (وعلي ربهم يتوكلون) حقيقة التوكل الثقة بالله تعالي والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين] – المرجع السابق – ٧٢/٣ – ٧٣ باختصار .

وورد من الآيات والأحاديث في الأمر به ما لا يمكن حصره ولكنا نشير إلي بعضه .

ففي سورة البقرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١) .

وفي الحديث الصحيح :

(عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له)(٢) .

النوع الثاني : العبادات القوليـــة :

ونعني بها العبادات التي تتعلق باللسان وهي كثيرة جداً

فمنها الدعاء وهو قسمان :

١– دعاء ثناء وهو أن يذكر الله سبحانه بأسمائه الحسني التي أمرنا الله أن ندعوه بها غير مقترن ذلك بطلب حاجة من رزق أو نحو ذلك .

كقولك مثلا : " يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " .

وهذا النوع من الدعاء محض عبادة ويشبه أن يكون هو المقصود بمثل قوله تعالي: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣) لقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٤) .

٢–والثاني دعاء سؤال وطلب وهو أن يسأل الله بأسمائه وصفاته حاجة من حوائج الدنيا أو الآخرة كأن يسأله الهداية أو سعة الرزق .

---

(١) سورة البقرة - الآية ١٥٣ .

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير – ١٨ / ١٠٠ – حديث رقم ٢٩٩٩ .

(٣) سورة غافر - الآية ٦٠ .

(٤) سورة غافر - الآية ٦٠ .

ولعل هذا النوع هو المقصود بقوله تعالي: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

ومنها الذكـر :

وحقيقته حضور المذكور في قلب الذاكر علي أى نحو من الأنحاء الثابتة له، ثم التعبير عن ذلك باللسان وضده الغفلة والنسيان والذكر هو أفضل العبادات، بل هو الغرض المقصود من العبادات كلها، فإنها ما شرعت إلا لتعين علي ذكر الله عز وجل، قال تعالي: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢) وفي الحديث القدسي يقول الله تعالي: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا جليس من ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير من ملأه) (٣) .

ومنها التسـمية :

وهو أن تبدأ الأقوال والأعمال ذات الشأن بذكر اسمه سبحانه وحده استعانة به وتبركاً.

---

(١) سورة الأعراف - الآيتان (٥٥ ، ٥٦).

(٢) سورة طه - الآية ١٤ .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – لإمام ابن حجر – ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ") .

- كتاب التوحيد باب قول الله تعالي ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ﴾ {آل عمران/٢٨}، وقوله جل ذكره ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ {المائدة/١١٦} – ٣٣٧/١٥ – ٣٣٨ – حديث رقم ٧٤٠٥ .

- وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب الحث علي ذكر الله تعالي – ٣/١٧ – ٤ حديث رقم ٢٦٧٥، و باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلي الله تعالي – ١١/١٧، حديث رقم ٢٦٧٥ .

وقد علمنا الله كيف نبتدئ أمورنا كلها بذكر اسمه، فابتدأ كتابه العزيز بتلك الآية العظيمة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وفي الحديث الصحيح :

(كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر أو أقطع أو أجذم)[١] .

ومنها الاستعاذة :

وهي طلب العوذ، يقال: عاذ به يعوذ عوذاً، يعني التجأ إليه وتحصن به، ويقال استعاذ به كذلك يعني طلب حمايته .

وفي القرآن عن يوسف الصديق عليه السلام حين دعته امرأة العزيز إلي نفسها: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢] .

والمعني أعوذ بالله معاذا، أى عوذاً. أى ألتجئ إلي الله وأحتمي به مما تدعيني إليه من الفاحشة .

وقد نهي الإسلام عن الرقي والتعويذات الشركية التي كان أهل الجاهلية يرقون بها، ووضع بدلها رقي كلها توحيد ودعاء خالص لله عز وجل .

كقوله عليه السلام : ﴿أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق﴾[٣]

---

(١) سنن أبي داود – للإمام الحافظ المصنف المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي – ٢٠٢– ٢٧٥ هـ ولفظه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ : " كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم " . - كتاب الأدب – باب الهَدْى في الكلام – ١١١/٥ – حديث رقم ٤٨٤٠ .إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد – دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م .

- وسنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني – ٢٠٧ – ٢٧٥ هـ - وبهامشه كفاية الحاجة في شرح ابن ماجة (حاشية السندي) ومصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري المتوفي سنة ٨٤٠ هـ – كتاب النكاح – باب خطبة النكاح – ص ٤٤٤ – حديث رقم ١٨٩٤ – تخريج وعناية / صدقي جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

(٢) سورة يوسف - الآية ٢٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه – ولفظه حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سمعت رجلاً من أسلم، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أصحابه، فقال: يا رسول، لُدغت الليلة فلم أنم حتى أصبحت،

وكقوله في الرقية التي كان يرقي بها الحسن والحسين رضي الله عنهما (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة وكل عين لامة)[1] .

ومنها الاستغاثـــة :

وهي طلب الغوث والنجدة، ولا يصح أن يستغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فإن ذلك شرك .

وقال تعالي إخباراً عن المؤمنين في استغاثتهم ليلة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [2]

وفي معني الاستغاثة الاستجارة، وهي طلب الجوار والحماية .

وفي الحـديث :

(كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط أحد منهم عليَّ وأن يبغي عليَّ عزَّ جارك وجلَّ ثناؤك لا إله إلا أنت)[3] .

قال: "ماذا "؟ قال: عقرب، قال: " أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك إن شاء الله " .

- سنن أبي داود – كتاب الطب – باب – كيف الرقي – ١٤٢/٤ – ١٤٣ – حديث رقم ٣٨٩٨ .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للإمام ابن حجر – كتاب أحاديث الأنبياء – باب ١٠ – ٦١/٧ – حديث رقم ٣٣٧١ .

(٢) سورة الأنفال – الآية (٩) .

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه – ولفظه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: " شكا خالد بن الوليد المخذومي إلي النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق. فقال نبيُّ الله ﷺ " إذا أويت إلي فِراشِكَ فَقُل اللَّهُمَّ ربَّ السماوات السبعِ وما أظلَّتْ، ورَبِّ الأرضين، وما أقلَّت، ورب الشياطين وما أضلَّت، كُنْ لي جاراً من شرِّ خلقك كلهم جميعاً أن يَفْرُط عليَّ أحدٌ منهم أو أن يبغي عليَّ . عزَّ جارُك وجل ثناؤك ولا إله غَيْرك لا إله إلا أنت " .

- سنن الترمذي وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل. ومعه – الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية ، وشفاء الغلل في شرح كتاب العلل .

- لأبي عيسي محمد بن عيسي بن سورة - المتوفى ٢٧٩ هـ - كتاب الدعوات – باب ٩٦ – ٣١٠/٥ – حديث رقم ٣٥٣٤ - قال: هذا حديث ليس إسناده بالقوي. والحكم بن ظُهير قد ترك أحاديثه .

- طبعة حقق أصولها المرحومان: أحمد شاكر، وفؤاد عبد الباقي، وأكملها الشيخ عبد القادر عرفان العشا حسونة – مراجعة وضبط وتصحيح/ صدقي محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

ومنها الحلف بالله تعالـــي :

فلا يصح القسم إلا بالله عز وجل أو بصفة من صفاته وفي الحديث: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[١] .

النوع الثالث : العبادات البدنيـة :

ونعني بها العبادات التي تؤدي بالجوارح وهي كثيرة ومعلومة فأفضلها الصلاة. وقد أمر الله بإقامتها ومدح الخاشعين فيها والمحافظين عليها ومنها الصيام والحج والعمرة والجهاد بالنفس وما يقتضيه من بذل الجهد في مقاتلة أعداء الله .

ومنها الرحلة في طلب العلم أو إلي أحد المساجد الثلاثة التي هي المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى، وبالجملة فكل عبادة نيطت بالبدن أو بعضو منه فهي داخلة في هذا النوع من العبادات .

النوع الرابع : العبادات الماليـة :

وهي التي تعبَّد الله عباده بها في أموالهم من الصدقات والذبائح والنذور فأهمها الزكاة المفروضة لمن وجبت عليه بأن بلغ عنده النصاب وحال عليه الحول .

وهي الركن الثالث من أركان الإسلام بعد الصلاة، وقد قرنت بها في آيات كثيرة وورد الوعيد الشديد علي ما نعيها كقوله تعالي :

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٢] .

ومنها النذر: وهو ليس بواجب في الابتداء بل ورد النهي عنه .

قال عليه السلام: ﴿لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل﴾[٣] .

---

(١) سنن الترمذي – كتاب النذور والإيمان – باب ٩ – ١٨٥/٣ – حديث رقم ١٥٤٠ .
ـ قال أبو عيسي: هذا حديث حسن .
(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٨٠ .
(٣) سنن الترمذي – ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ " لا تنذروا، فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من الخيل " .

ومنها الذبـح :

وهو أيضاً عبادة إذا تعلق بهدي أو أضحية نذر أو كفارة عقيقة أو نحو ذلك .

قال تعالي آمراً لنبيه ﷺ :

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] .

فقرن في الآية بين النسك الذي هو الذبح وبين الصلاة في وجوب إخلاص كل منهما لله، لأن كلاً منهما عبادة يتقرب بها إلي الله][2] .

ويدل علي الأمر بعبادة الله سبحانه :

قوله تعالـــــــي :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] .

ومما قيل في بيان صلة هاتين الآيتين بما قبلهما: [لما عدد الله تعالي فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الالتفات المذكور عند قوله إياك نعبد – وهو فن من الكلام جزل فيه هز وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إن فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه، ثم عدلت بخطابك إلي الثالث فقلت: يا فلان من حقك أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي علي جادة السداد في

- سنن الترمذي – كتاب النذور والأيمان – باب في كراهية النذر – ١٨٧/٣ – حديث رقم ١٥٤٣ .
- قال أبو عيسي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح .

(١) سورة الأنعام – الآيتان ١٦٢ – ١٦٣ .
(٢) ينظر دلائل التوحيد – للعلامة القاسمي – ٨٧ – ١٠٥ باختصار .
(٣) سورة البقرة - الآيتان ٢١ – ٢٢ .

مصادرك ومواردك، نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلي إرشادك زيادة استدعاء، وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلي المواجهة هازًّا من طبعه ما لا يجده إذا استمررت علي لفظ الغيبة وهكذا الافتنان في الحديث والخروج من صنف إلي صنف .

يستفتح الآذان للاستماع ويستهش الأنفس للقبول][1]

قال الإمام المراغي[2] :

[بعد أن ذكر أصناف الخلق وبين أن منهم المهتدين، والكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية، والمنافقين والمذبذبين بين ذلك – دعا الناس إلي دين التوحيد الحق وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص، حتي كأنهم ينظرون إليه ويرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، فإن فعلوا ذلك أعدوا أنفسهم للتقوى، وبلغوا الغاية القصوى .

ثم عدد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين علي العمل والكسب، ثم خلق الأرض مستقراً ومهاداً لينتفعوا بخيراتها ويستخرجوا معادنها ونباتها، ثم بني لهم السماء التي زينها بالكواكب، وجعل فيها مصابيح يهتدي بها الساري في الليل المظلم، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها وأشكالها .

أفليس في كل هذا ما يطوح بالنظر، ويهدي الفكر إلي أن خالق هذا الكون البديع المثال لا نِدَّ له ولا نظير، وأن ما جعلوه أنداداً له لا يقدرون علي إيجاد شئ مما خلق

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – ٤٦٧ – ٥٣٨ هـ - ٢٢٣/١ – ٢٢٤ باختصار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بدون بيان عن الطبعة .

(٢) الإمام المراغي [أحمد بن مصطفي المراغي: مفسر مصري، من العلماء. تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩م ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها وولي نظارة بعض المدارس. وعين أستاذاً للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم. وتوفي بالقاهرة. له كتب، منها " الحسبة في الإسلام "، و " الوجيز في أصول الفقة " و " تفسير المراغي " توفي سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م] .
- الأعلام – للزركلي – ١ / ٢٥٨

وأنهم يعلمون ذلك حق العلم، فكيف يستغيثون بغير الله، ويدعون غير الله، ويستشفعون به، ويتوسلون إليه، مع أنه لا خالق ولا رازق إلا الله ؟][1] .

وقد كثر النداء بيأيها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه :

[فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء علي هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره .

قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادي الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واختصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ][2] .

[وإنما خص نعمة الخلق وامتنَّ بها عليهم، لأن جميع النعم مترتبة عليها. وهي أصلها التي لا يوجد شئ منها بدونها .

وأيضا فالكفار مُقِرّون بأن الله هو الخالق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[3] فامتنَّ عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه][4] .

[يأمر الله تعالي جميع الناس من مشركي مكة وغيرهم بعبادته وحده .

وأصل العبادة: الخضوع والتذلل، ويراد بها هنا توحيد الله والتزام شرائع دينه، ونبذ عبادة الأصنام. والسبب أن هذا الرب العظيم يستحق إفراده بالعبادة، لأنه خالق العباد

(١) تفسير المراغي – تأليف صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير – المرحوم أحمد مصطفي المراغي – أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية بكلية دار العلوم سابقاً – ٥٩/١ – ٦٠ – خرج آياته وأحاديثه باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – للإمام الزمخشري – ٢٢٦/١ .

(٣) سورة الزخرف - الآية ٨٧ .

(٤) فتح القدير – الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – تأليف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني – ٥١/١ – طبعة جديدة مصححة ومنقحة مأخوذة عن مخطوطة دار الكتب المصرية – طبعة دار الخير – بيروت – الطبعة الأولي ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

جميعهم، المأمورين وأسلافهم، ومدبر شؤونهم، وواهبهم ما يحتاجونه من طرق الهداية ووسائل المعرفة.

وللعبادة ثمرة مؤكدة هي الوصول للتقوى والظفر بالفوز والنجاح والهدي وبلوغ درجة الكمال .

وبما أن الأصل في كلمة " لعل " للترجي والتوقع، وهو مستحيل من الله القدير الأعلى للعبد الضعيف الأدنى، فكان المراد به: افعلوا ذلك راجين الوصل للتقوى، أو لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا .

والأمر بالعبادة أيضا لأنه سبحانه جعل الأرض مهاداً وقراراً للاستقرار عليها، والحياة والإقامة فيها بهدوء واطمئنان، بالرغم من دورانها وكرويتها، فهي ثابتة بالجبال الراسيات، ولأنه جعل السماء سقفاً مرفوعاً فوق الأرض كالقبة، تظل الناس بالخير والبركة، وأحكم بناءها مع ما فيها من أفلاك وأجرام، وأحكم النسب بينها فلا يختل نظامها، ولا تصطدم ببعضها، وأنزل منها أى من السحاب ماءاً مباركاً ومطراً عذباً ينبت به الزرع والعشب .

ويحي الأرض بعد موتها، ويغسل به الجو الذي تلوث بالتراب وغيره من كل ما يؤذي ويضر ويعكر صفو الهواء .

فمن اتصف بالخلق والإبداع والتكوين للإنسان، والإمداد له بالنعم والأرزاق، وبخلق السماء والأرض لخير البشر، جدير بالعبادة والتعظيم والخضوع له، فلا يليق اتخاذ الشركاء الضعفاء معه من الأصنام والبشر، الذين لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعون عن ذواتهم ضراً][1] .

[ودلت هذه الآية علي أن الله أغني الإنسان عن كل مخلوق ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلي هذا المعني: " والله لأن يأخذ أحدُكم حبله فيحتطب علي ظهره خير له من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه " [2] .

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – الأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلي – ٩٦/١ – ٩٧ – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – دار الفكر – دمشق – سورية – الطبعة الأولى – ١٤١١هـ/١٩٩١ م .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: " والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب علي ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه "

ويدخل في معني الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها فمن أحوج نفسه إلي بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً][1] .

وتدعو هذه الآيات إلي عبادة الله وحده وإفراده بالعبادة، وذلك لأنه الخالق لكل موجود في الكون من البشر الذين كانوا من قبل والموجودين ومن سيوجدون في المستقبل .

وهو سبحانه ليس خالقاً للبشر فقط بل هو خالق لكل الكائنات وهو الذي يتولي عباده بالرعاية ولا يخفي عليه شئ من أمورهم، فليعبدوه حق العبادة في اتباع أوامره وأداء ما شرعه لهم من عبادات راجين عفوه آملين في ثوابه .

فتعديد النعم التي أنعم الله بها علي عباده جاءت في هذه الآية لتذكيرهم بالخالق وحده المستحق للعبادة دون غيره .

فقد سوَّى لكم الأرض ومهدها تيسيراً منه لسبل العيش عليها وجعل لكم السماء مظلة تحميكم ورزقكم من جميع الثمرات التي تستقيم معها الحياة وتستمر، فأفردوه بالعبادة ولا تشركوا معه غيره ممن لم يخلق ولم يرزق شيئاً .

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ قيل في تفسيرها: [فلا تجعلوا له أنداداً شركاء في العبادة، أى أمثالاً تعبدونهم كعبادته – جمع ند. وهو المثل، ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوئ – فإن قيل: كيف صلح تسميتها أنداداً وهم ما كانوا يزعمون أنها تخالفه وتناوئه، بل كانوا يجعلونها شفعاء عنده ؟ أجيب: بأنهم لما تقربوا إليها، وعظموها،

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للإمام ابن حجر - كتاب الزكاة – باب الاستعفاف عن المسألة – ٩٧/٤ – حديث رقم ١٤٧٠ .
- وسنن الترمذي – كتاب الزكاة – باب ما جاء في النهي عن المسألة – ١٥٣/٢ – ١٥٤ – حديث رقم ٦٨٠ .
- قال أبو عيسي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح غريب يستغرب من حديث بيان عن قيس .

(١) الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي – لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – ٢٢٩/١ – تقديم هاني الحاج – حققه وخرج أحاديثه عماد زكي البارودي - خيري سعيد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون بيان عن الطبعة .

وسموها آلهة – أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة مثله قادرة علي مخالفته، ومضادّته، فقيل لهم ذلك علي سبيل التهكم. وكما تهكم بهم بلفظ الند شنّع عليهم، واستفظع شأنهم، بأن جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصح أن يكون له ندّ قط .

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما بينه وبينها من التفاوت، وأنها لا تفعل مثل أفعاله أو وأنتم من أهل العلم والمعرفة – والتوبيخ فيه آكد أى أنتم العرافون المميزون، ثمَّ ما أنتم عليه في أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل، ونهاية سخافة العقل][1] .

ومما ورد في التحذير من اتخاذ الأنداد والأمر بعبادة الله وتوحيده. ما أخرجه الإمام أحمد بسنده [عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: " إن الله عز وجل أمر يحيي بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهنَّ، وأن يأمر بي إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، وكاد أن يبطئ فقال له عيسي عليه السلام: إنَّك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، فإمَّا أن تُبلغِهنَّ وإمَّا أن أبلغهن. فقال: يا أخي إني أخشي إن سبقتني أن أُعذَّب أو يُخسف بي: قال فجمع يحيي بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتي امتلأ المسجد فقعد علي الشَرَف فحمد الله وأثني عليه ثم قال: إنَّ الله عز وجل أمرني بخمس كلماتٍ أن أعمل بهنَّ وآمركم أن تعملوا بهنَّ أوَّلُهنَّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشتري عبداً من خالص ماله بورِقٍ أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلَّته إلي غير سيده فأيكم سرَّه أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك مثل رجل معه صُرةٌ من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإنَّ خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلي عنقه وقدموه ليضربوا

(١) تفسير القاسمي – المسمي محاسن التأويل – تأليف محمد جمال الدين القاسمي ١٢٨٣ – ١٣٣٢ هـ، ١٨٦٦ – ١٩١٤ م - ٦٩/٢ باختصار – وقف علي طبعه وتصحيحه ورقمه وخرج آياته وأحاديثه خادم الكتاب والسنة محمد فؤاد عبد الباقي - دار الفكر – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

عنقه فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتي فكَّ نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتي حصناً حصيناً فتحصَّن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل قال: فقال رسول الله ﷺ :

" وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهنَّ بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء [1] جهنم " .

قالوا: يا رسول الله وإن صام وإن صلي؟ قال: وإن صام وإن صلي وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل ".][2]

من المخاطب في قوله تعالي: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؟

[اختلف المتأولون من المخاطب بهذه الآية، فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين فقوله سبحانه علي هذا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد العلم الخاص في أنه تعالي خلق وأنزل الماء، وأخرج الرزق .

وقيل المراد كفار بني إسرائيل، فالمعني وأنتم تعملون من الكتب التي عندكم إن الله لا ند له، وقال ابن فورك يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين][3] .

---

(١) الجثا : [جمع جُثْوة بالضم، وهو الشئ المجموع] .
- النهاية في غريب الحديث والأثر – تأليف الإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري – المتوفى ٦٠٦هـ - ٢٣٢/١ – خرج أحاديثه وعلق عليه/ أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨هـ / ١٩٩٧ م .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل - ١٧٨/٤ – ١٧٩ – حديث رقم ١٧١٣٩ – إشراف الدكتور/ سمير طه المجذوب، وعلى حسن الطويل ، وسمير حسين غاوي – المكتب الإسلامى – بيروت – دمشق – عمان – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣ م .

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن – تأليف الإمام العلامة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي – حققه وخرج أحاديثه ووثق أصوله أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني – ٥٤/١ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي – ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

وهم مع علمهم بأن الله هو خالقهم ورازقهم يعبدون معه غيره مع أنه المنعم عليهم بجميع النعم، وهم في كل وقت يلجأون إليه ويدعونه لأنهم يعلمون أنه الذي يخلق ويملك وهو من بيده الضر والنفع ومع ذلك يشركون معه عبادة من لا يضر ولا ينفع ولا يملك شيئاً لنفسه فكيف يملك لغيره .

المبحث الثاني

الوصية الثانيـة (الإحسان إلي الوالدين)

وتلك الوصية في مجملها هي محافظة علي الأسرة كلها فإن الإحساس إلي الوالدين يعني استقرار الأسرة وهدوئها وقيامها بما كلفت به من الخالق سبحانه من مهام التربية والتنشئة السوية والاحتواء للأبناء وحمايتهم من الأخطار وهم بدورهم لابد أن يقابلوا المعاملة الحسنة بأحسن منها ولذا قال سبحانه وتعالي : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [أي أحسنوا إلي الوالدين إحساناً، وذكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشئ نهيٌ عن ضده فكأنه قال: ولا تسيئوا إلي الوالدين][1] .

[وإنما ثني بهذا التكليف، لأن أعظم أنواع النعم علي الإنسان نعمة الله تعالي، ويتلوها نعمة لوالدين، لأن المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله سبحانه وفي الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما علي الإنسان عظيمة وهي نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع.][2] .

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي اجتمعت علي الوصية بالوالدين قال تعالي : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[3] .

[إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلي الوالدين لوجوه : أحدهما : أن نعمة الله تعالي علي العبد أعظم، فلابد من تقديم شكره علي شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم، وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما

---

(١) صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – ٣٩٧/١ – دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الأولي – ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .

(٢) التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب – للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي – (٥٤٤-٦٠٤هـ) – ١٩٢/١٣ – قدم له : هاني الحاج – حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه عماد زكى البارودى المكتبة التوفيقية – مصر .

(٣) سورة البقرة – الآية (٨٣) .

منعمان عليه بالتربية وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود، بل بالتربية فقط، فثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالي .

وثانيهما : أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر.

وثالثها : أن الله تعالي لا يطلب بإنعامه علي العبد عوضاً ألبتة بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدين كذلك، فإنهما لا يطلبان علي الإنعام علي الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلي ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامها إنعام الله تعالي .

الرابع : أن الله تعالي لا يمل من الإنعام علي العبد ولو أتي العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئاً إلي الوالدين .

الخامس : كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاسترباح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والنقصان، فكذا الحق سبحانه وتعالي متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقي كالشئ الباقي أبد الآباد كما قال : ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾ ﴿البقرة / ٢٦١﴾

السادس : أن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة إلا أنها قليلة بالنسبة إلي نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالي .

والإحسان إليهما هو ألا يؤذيهما ألبتة ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه، فيدخل فيه دعوتهما إلي الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف علي سبيل الرفق إن كانا فاسقين][1] .

(١) التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب للإمام الرازي – ١٦٠/٣-١٦١ باختصار وتصرف يسير .

قال تعالي: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[1].

[والإحسان إلي الوالدين هو أن يقوم بخدمتهما، وألا يرفع صوته علهما، ولا يخشن في الكلام معهما، ويسعي في تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة من البر، وأن لا يشهر عليهما سلاحاً ولا يقتلهما][2] .

عن النبي ﷺ أنه قال: " أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس"[3] .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رجلا هاجر إلي رسول الله ﷺ من اليمن، فقال : " هل لك أحد باليمن " ؟ قال أبواي، قال " إذِنا لك "؟ قال لا قال: " إرجع إليها فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرَّهما "[4] .

قال تعالي : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[5] .

---

(١) سورة النساء – الآية (٣٦) .
(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – للإمام الرازي – ٨٧/١٠ .
(٣) صحيح البخارى – عن عبدالله بن عمرو بن العاص – كتاب الأيمان والنذور – باب اليمين الغموس – ١٣٧/٨ – حديث رقم ٦٦٧٥ ترقيم الأستاذ : محمد فؤاد عبدالباقي – طبعة طوق النجاة – الطبعة الأولي – سنة ١٤٢٢ هـ .
(٤) سنن أبي داود – للإمام الحافظ المصنف المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى – ٢٠٢ – ٢٧٥ هـ - كتاب الجهاد – باب في الرجل يغزو وأبواه كارهان – ٢٩/٣ – ٣٠ – حديث رقم ٣٥٣٠ – إعداد وتعليق: عزت عبيد الرعاسى وعادل السيد – دار ابن حزم بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
(٥) سورة الإسراء – الآيتان (٢٣-٢٤) .

فالإحسان والتكريم والرحمة والتلطف في المعاملة وخفض الجناح والشكر للوالدين وإيصال الخير لهما في جميع الأحوال واجب الابن تجاههما وليس من باب التفضل والمن عليهم.

[وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالي وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه :

الوجه الأول : أن السبب الحقيق لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالي وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيق، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري .

الوجه الثاني : أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية ومع المحدث بإظهار الشفعة، وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما علي الإنسان فقوله : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إشارة إلي التعظيم لأمر الله وقوله : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إشارة إلي الشفقة علي خلق الله .

الوجه الثالث : أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيق هو الخالق سبحانه وتعالي. وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك، وشكره أيضا واجب لقوله ﷺ " من لم يشكر الناس لم يشكر الله "[1] وليس لأحد من الخلائق نعمة علي الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه: أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين، قال عليه الصلاة والسلام: " فاطمة بضعة مني "[2] .

---

(١) سنن الترمذي – وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله □ ومعرفة الصحيح المعلول وما عليه العمل – لأبى عيسي محمد بن عيسي بن سورة المتوفي٢٧٩ – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك – ٣٨٤/٣ – حديث رقم ١٩٦٢ – مراجعة وضبط وتصحيح – صدقي محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

وسنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في شكر المعروف – ولفظه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " لا يشكر الله من لا يشكر الناس " – ١٠٢/٥ – حديث رقم ٤٨١١ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ٧٧٣ – ٨٥٢ هـ- كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ – باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي □ وقال النبي ﷺ : " فاطمة سيدة نساء أهل الجنة " ٤٤٣/٧ – حديث رقم ٣٧١٤ – جزء من حديث – ولفظه عن

وثانيهما : أن شفقة الأبوين علي الولد عظيمة وجدهما في إيصال الخير إلي الولد كالأمر الطبيعي، واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتى كانت الدواعي إلي إيصال الخير متوفرة، والصوارف عنه زائلة لاجرم كثر إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين علي الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلي إنسان .

وثالثهما : أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز، يكون في إنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلي الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعاً علي هذا الوجه كان موقعه عظيماً.

ورابعها : أن إيصال الخير إلي الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلي الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة علي غيره مثل ما للوالدين علي الولد، فبدأ الله تعالي بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والسبب فيه أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

المسور بن مخرمة: أن رسول ﷺ قال: " فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني "- نسخة مصححة علي عدة نسخ وعن النسخة التي حقق أصولها وأجازها الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٦ هـ-١٩٩٦ م .

وصحح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحيي بن شرف النووي الدمشقي المتوفي ٦٧٦هـ - كتاب فضائل الصحابة – باب فضائل فاطمة بنت النبي – ٣/١٦ – حديث رقم ٢٤٤٩ – ولفظه " إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها " .

ضبط وتوثيق : صدقي محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

قوله : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا﴾ معناه : أنهما يبلغان إلي حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهم في أول العمر](١) .

ومن البر بهما والإحسان إليهما ما بينته السنة المطهرة مما روي عن عبدالله قال: سألت النبي ﷺ أى العمل أحب إلي الله ؟ قال: " الصلاة علي وقتها " قال: ثم أي ؟ قال: " ثم بر الوالدين "، قال: ثم أى ؟ قال: " الجهاد في سبيل الله "(٢) إذا بر الوالدين أعظم الأعمال بعد الصلاة وقبل الجهاد فيا لها من مكانة عظيمة تلك التي أعطتها شرائع الدين للوالدين وفضلهما.

ومن برهما تكريمهما وعدم تعريضهما لأي شكل من أشكال الإيذاء المعنوي كالعقوق والسَّب فإنه من الكبائر التي حرمها الله سبحانه .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: " من الكبائر شتم الرجل والديه " قالوا: يا رسول الله ! وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال: " نعم. يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسبّ أمه فيسب أمه "(٣) .

ومن أنواع البر بر الوالدين الكافرين ما لم يأمرا بمعصية أو ما يخالف الشرع .

عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ

فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: " نعم، صلي أمك "(٤) .

---

(١) التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب – للإمام الرازي – ١٥١/٢٠-١٥٤ باختصار وتصرف .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب مواقيت الصلاة – باب فضل الصلاة لوقتها – ١٩٠/٢ – حديث رقم ٥٢٧ – وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الإيمان – باب بيان كون الإيمان بالله تعالي أفضل الأعمال– ٦٢/٢ – حديث رقم ٨٥.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – لابن حجر العسقلاني – كتاب الأدب – باب لا يسب الرجل والديه – ٧/١٢ – حديث رقم ٥٩٧٣ – وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الإيمان – باب الكبائر وأكبرها – ٧٠/٢ – حديث رقم ٩٠ – واللفظ لمسلم .

(٤) فتح البارى بشرح صحيح البخارى – كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها – باب الهدية للمشركين – ٥٥٤/٥ – حديث رقم ٢٦٢٠ .
وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الزكاة – باب فضل النفقة والصدقة علي الأقربين والزوج والأولاد والوالدين، ولو كانوا مشركين – ٧٥/٧ – حديث رقم ١٠٠٣ .

ومن برهما أيضاً وهو من أعظم أنواع البر صلة أصدقائهما بعد وفاتهما ومن كان بينهما وُدٌّ ومعروف ورحمة وعطاء .

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن من أبر البر صلة الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يُوَلىّ "(١) .

واحتياج الوالدين للرعاية والإكرام والخدمة في كل وقت لكنها في حال الكبر والضعف والعجز أولي .

[قوله تعالي: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا﴾ خص حالة الكبر، لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلي بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاً عليه، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما في الكبر ما كان يحتاجه في صغره أن يليَا منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه علي أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر .

وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ .

عن أبي هريرة قال: " رغم أنف رغم أنف رغم أنف " قيل: من يا رسول الله ؟ قال: " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة "(٢) .

﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أى لا تقل لهما ما يكون فيه أدني تبرم .

﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ النهر: الزجر والغلظة .

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما – ٩٤/١٦ – حديث رقم ٢٥٥٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب البر والصلة والآداب – باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة – ٩٢/١٦ – حديث رقم ٢٥٥١ .

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أي ليناً لطيفاً .

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة كما أشار إليه سعيد بن المسيب. وضَرَب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده .

والذل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحِد إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب][1] .

[والمقصود منه المبالغة في التواضع وفي ذلك وجهين :

الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلي نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك .

والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه. فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه .

وقوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ معناه: ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما][2] .

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما][3].

وإفراده سبحانه بالعبادة أمر يحتاج إلي إخلاص النية وكذلك الحرص علي رعاية الوالدين وخدمتهما لابد فيها من الصدق والإخلاص ومراقبة الله سبحانه وتعالي .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي– لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي– ١٩٨/١٠-٢٠١ باختصار تقديم/ هاني الحاج، حققه وخرج أحاديثه : عماد زكي البارودي– خيري سعيد– المكتبة التوفيقية– بدون تاريخ .

(٢) التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب – للإمام الرازي – ١٥٦/٢٠ باختصار .

(٣) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ٢٠١/١٠ .

ولذلك قال تعالي : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾[1] .

[والمعني أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالي وبالإحسان بالوالدين، ولا يخفي علي الله ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فاعلموا أن الله تعالي مطلع علي ما في نفوسكم بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها، لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل، فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الأحوال، وإذا كان الأمر كذلك كان عالما بكل ما في قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الإخلاص][2] .

[﴿إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ﴾أي إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أوابين، أى رجاعين إلي الله منقطعين إليه في كل الأعمال وسنة الله وحكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيئاتهم، والأواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلي أمر الله والالتجاء إلي فضله ولا يلتجئ إلي شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جماداً يزعمون أنه يشفع لهم، والمقصود من هذه الآية أن الآية الأولي لما دلت علي وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ يعني أنه تعالي عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضي الجبلة البشرية كانت في محل الغفران][3] .

قال تعالي: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[4] .

---

(١) سورة الإسراء – الآية ٢٥ .
(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ١٥٧/٢٠ .
(٣) المرجع السابق – ١٥٧/٢٠ باختصار .
(٤) سورة لقمان – الآية (١٤) .

[لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة، بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين، ثم بين السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ يعني لله علي العبيد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ماله صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود، وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، أى صارت بقدرته أيضا سبب بقائه، فإذا كان منها ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة، فإن الخدمة لها صورة العبادة، فإن قال قائل وصي الله بالوالدين وذكر السبب في حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ لما كان الله تعالي بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله، فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ ثم بين الفرق وقال: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة، فإن إِلَيَّ الْمَصِيرُ أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء عليَّ وقت المصير إليَّ .

ثم قال تعالي: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] .

يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله، أما إذا أفضي إليه فلا تطعهما، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾، يعني صاحبهما بجسمك فإن حقهما علي جسمك، واتبع سبيل النبي ﷺ بعقلك، فإنه مربي عقلك، كما الوالد مربي جسمك][٢] .

(١) سورة لقمان – الآية (١٥) .
(٢) التفسير الكبير – الرازي – ١٢٨/٢٥ – باختصار .

المبحث الثالث

الوصية الثالثة (النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر)

يقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1]

أوصي الله سبحانه الآباء بالأبناء ووعدهم بأنه يكفل لهم الرزق جميعاً فلا يخافوا من الفقر والحاجة فكما رزق الآباء فهو سبحانه من يرزق الأبناء وهذا من أدلة ألوهيته سبحانه واستحقاقه للعبادة وحده دون غيره .

[وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى من خوف الفقر وقد صرح بذكر الخوف في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ﴿الإسراء/٣١﴾ والمراد منه النهي عن الوأد، إذ كانوا يدفنون البنات أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم خوف الفقر، وهو السبب الغالب، فبين تعالي فساد هذه العلة بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾،لأنه تعالي إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد، فكما وجب علي الوالدين تبقية النفس والإتكال في رزقها علي الله، فكذلك القول في حال الولد][2] .

ولابد للعقيدة السليمة أن تحكم حياة الفرد والمجتمع ولا يستسلم للاعتقاد الفاسد الذي يذهب بسلامه النفسى إلي أن يقتل نفساً لا ذنب لها نتيجة اعتقاده أنها سبب لفقره وعجزه واحتياجه .

قال تعالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾[3]

[العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامه علي النهب والغارة، وأيضاً كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها

(١) سورة الأنعام – الآية (١٥١) .
(٢) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ١٩٢/١٣ .
(٣) سورة الإسراء – الآية (٣١) .

فيحتاجون إلي إنكاحها من غير الأكفاء، وفي ذلك عار شديد فقال تعالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ وهذا لفظ عام للذكور والإناث، والمعني: أن الموجب للرحمة هو كونه ولداً، وهذا المعني وصف مشترك بين الذكور والإناث. وأما ما يخاف من الفقر من البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر، وقد يخاف أيضا في العجزين من البنين][1] .

فتقديم رزق الأبناء علي الآباء في هذه الآية لأن الفقر غير موجود لكنه متوقع في ظنهم أنه سيقع بوجودهم فهو مجرد خوف وتوقع وظن سئ لما سيقع في المستقبل فطمأنهم سبحانه بأنه يكفل لهم رزق الأولاد فلا خوف إذاً .

وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء علي الأبناء لأن الفقر واقع بالفعل فطمأنهم سبحانه علي رزقهم أولاً ثم بين أن رزق أبنائهم لن ينقص من رزقهم شئ لأن الرازق الحقيقى هو الله فكما رزقهم سيرزق أبناءهم .

وفي سياق تأكيد ضمان الرزق لكل مخلوق علي الأرض سوى الإنسان قال تعالي: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] فقد كفل سبحانه لجميع المخلوقات علي وجه الأرض رزقها علي ظهر الأرض وفي باطنها وفي سمائها سواء بالخلق بداية أو بصناعته أو زراعته أو حتي نزوله من السماء علي هيئة مطر وهو سبب في إنتاج الرزق العظيم.

وقيل في المراد بهذه الآية [" عَلَى " بمعني " مِن " أى من الله رزقها، يدل عليه قول مجاهد: كل ما جاءها من رزق فمن الله. وقيل: " علي الله " أى فضلا لا وجوباً .

وقيل: وعداً منه حقاً وأنه سبحانه لا يجب عليه شئ.

(١) مفاتيح الغيب – للإمام الرازي – ١٦١/٢٠ .
(٢) سورة هود – الآية (٦) .

وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص لأن كثيراً من الدواب هلك قبل أن يرزق. وقيل: هي عامة في كل دابة، وكل دابة لم ترزق رزقاً تعيش به فقد رزقت روحها .

والدابة كل حيوان يدب. والرزق حقيقته ما يتغذي به الحيّ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده. ولا يجوز أن يكون الرزق بمعني الملك لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها وهكذا الأطفال ترزق اللبن ولا يقال: إن اللبن الذي في الثَّدى مِلك للطفل. (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا) أى من الأرض حيث تأوي إليه .

(وَمُسْتَوْدَعَهَا) أى الموضع الذي تموت فيه فتدفن .

(كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) أى في اللوح المحفوظ][1] .

عن ابن مسعود رضي الله عنه حين سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ؟ فقال: " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " قال: ثم أى ؟ قال: " أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك "، قال: ثم أي ؟ قال: " أن تزاني حلية جارك "، ثم تلا رسول الله ﷺ [﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[2]][3] .

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ٧/٩ – ٨ باختصار .
(٢) سورة الفرقان – الآية (٦٨) .
(٣) صحيح البخاري – كتاب التفسير – باب والذين لا يدعون مع الله إلها آخر – ١٠٩/٦ – حديث رقم ٤٧٦١ .
وصحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب كون الشرك بالله أقبح الذنوب – ٩٠/١ – حديث رقم ١٤١ – تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى – طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت .

المبحث الرابع

الوصية الرابعـة (النهى عن قرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن)

قال تعالي : ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ .

وهذه القاعدة من القواعد اللازمة لحماية المجتمع من الرذائل وصيانة الأسرة من التفكك والانهيار وتأسيسها علي العفة والاستقامة .

الفاحشة في اللغة: [الفحش والفحشاء والفاحشة : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، قال تعالي: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ﴿النساء/١٩﴾ كناية عن الزنا، وكذلك قوله: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ ﴿النساء/١٥﴾، وفحُش فلان: صار فاحشاً، والمتفحش: الذي يأتي بالفحش][1] .

ومن سياق الآية يبدو أن المراد فاحشة الزنا لأنها من أقبح الفواحش لاشتمالها علي عدة محرمات هي مقدمات لتلك الفاحشة كالتبرج وقصد الإثارة وكل ما من شأنه أن يهدم ثوابت المجتمع ويساعد علي انهيار الأسرة بما يعرضها له من اختلاط الأنساب وضياع الحقوق وإهانة النفس وتعريضها للخزي والهوان والاحتقار من أصحاب النفوس الكريمة الذين يرفضون هذه الفاحشة ويفرون من أصحابها وينفرون منهم وينبذونهم خارج المجتمع السوىّ المستقيم .

وقيل في تفسير هذه الآية: [قال ابن عباس: كانوا يكرهون الزنا علانية، ويفعلون ذلك سراً، فنهاهم الله عن الزنا علانية وسراً، والأولى أن لا يخصص هذا النهي بنوع معين، بل يجري علي عمومه في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها لأن اللفظ عام .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن- العلامة الراغب الأصفهاني – المتوفى في حدود ٤٢٥هـ - ص٦٢٦ – ٦٢٧ باختصار – تحقيق : صفوان عدان داوودي – دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

والمعني الموجب لهذا النهي وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعني يكون التخصيص على خلاف الدليل، وفي قوله:﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة، وهى: أن الإنسان إذا احترز عن المعصية في الظاهر ولم يحترز عنها في الباطن دلَّ ذلك علي أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس، وذلك باطل، لأن من كان مذمة الناس عنده أعظم وقعاً من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً، دلَّ ذلك على أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالي وخوفاً من عذابه ورغبة في عبوديته.][1]

وقد حرص الإسلام علي وضع سبل لوقاية الأسرة والمجتمع مما يحيط بها من مخاطر إشاعة الفاحشة في السر والعلن فأغلق مصادر الفتنة وقاوم انسياق الفرد خلف شهواته الفاسدة قبل وصوله إلى ارتكاب الفاحشة ووجوب إقامة الحدود ووقوع العقوبات فلابد من تربية الضمير أولاً وصيانة الحواس والجوارح في السر والعلن .

ومما يؤكد قبح فاحشة الزنا أن التعبير القرآني جاء بالنهى عن مجرد قربانها عن طريق مقدماتها المؤدية لها فما بالنا بإتيانها فالتحذير أشد وأقوي .

وقد جاء التحذير عن قربان ما تهواه النفس ولا يحل لها كالمال في قوله تعالي: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] .

والزوجة في حال عدم الطهر في قوله تعالي: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[3] .

والأكل مما نهى الله عنه فى قوله تعالي: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[4] .

وكلها تحذيرات بعدم قربانها فلا شك أن إتيانها أشد تحذيراً وآكد تحريماً ومما يؤكد التنفير من فاحشة الزنا وفظاعة هذا الجرم ورودها وسط النهى عن قتل الأولاد

(١) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ١٩٢/١٣ .
(٢) سورة الأنعام – الآية (١٥٢) .
(٣) سورة البقرة – الآية (٢٢٢) .
(٤) سورة البقرة – الآية (٣٥) .

والنهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وذلك في عدة مواضع فى القرآن الكريم.

ففى سورة الأنعام قال تعالي: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١) .

وفي سورة الإسراء قال تعالي: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا * وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً * وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٢)

وفي سورة الفرقان قوله تعالي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٣) .

وسائل الحماية التي وضعها القرآن الكريم لمنع الوقوع في فاحشة الزنا :

أولاً: نهي المرأة عن ارتداء الملابس التي تشف وتصف جسدها وألا تبدى زينتها إلا لمحارمها .

قال تعالي: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ

(١) سورة الأنعام – الآية (١٥١) .
(٢) سورة الإسراء – الآية (٣١-٣٣) .
(٣) سورة الفرقان – الآية (٦٨) .

أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١] .

فالإسلام بقواعده التي يقيمها يهدف إلي إقامة مجتمع مستقر نقي بعيد عن استثارة الشهوات وينظمها ويضع لها الطريق الصحيح لكي تسلكه دون انفلات أو فوضي .

وقبل هذا أمر أيضاً المؤمنين بغض البصر فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٢] .

فالميل بين الرجل والمرأة أمر فطري لأنه وسيلة استمرار الحياة وإعمار الأرض وتحقيق خلافة الله في أرضه ولكنه سبحانه وضع له السياق اللائق بكرامة الإنسان ومكانته وشرع له من الضوابط التي تضمن صلاحه واستمراره .

فأمر الرجل بغض البصر لإغلاق طريق الفتنة والغواية ونتيجة ذلك حفظ الفرج لتحقيق رقابة الخالق سبحانه في كل فعل وفي كل ترك ووصف ذلك بأنه تزكية للنفس واستعلاء فوق الشهوات وصيانة للأعراض وطهارة للفرد وحفظ للمجتمع .

[البصر هو الباب الأكبر إلي القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضّه عن المحرمات وكل ما يخشي الفتنة من أجله وقد قال ﷺ : " إياكم والجلوس علي الطرقات " فقالوا: ما لنا بُدّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال: " فإذا أتيتم إلي المجالس فأعطوا الطريق حقها " قالوا: وما حق الطريق ؟ قال: " غض البصر، وكف الأذى، وردَّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر "[٣]

(١) سورة النور – الآية (٣١) .
(٢) سورة النور – الآية (٣٠) .
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب المظالم – باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس علي الصعدات – ٤٠٥/٥ – حديث رقم ٢٤٦٥ – وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب اللباس والزينة – باب النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه – ٨٤/١٤ – حديث رقم ٢١٢١ .

وقال ﷺ لعلىّ: " لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولي وليست لك الآخرة "[١] .

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي يستروها عن أن يراها من لا يحلّ .

وقيل: " ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أى عن الزني .

﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أى غض البصر وحفظ الفرج أطهر في الدين وأبعد من دنس الأنام ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾أى عالم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد ووعيد .

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾ خصّ الله سبحانه وتعالي الإناث هنا بالخطاب علي طريق التأكيد فإن قوله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين حسب كل خطاب عام في القرآن .

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [" إن الله كتب علي ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر ..... " الحديث[٢]][٣] .

ومن شدة التحذير من إبداء الزينة قال تعالي: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ :[قال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها، ومعلوم أن الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن، وقد علل ذلك بأن قال ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن

(١) سنن أبي داود – كتاب النكاح – باب ما يؤمر به من غض البصر - ٤٢١/٢ – حديث رقم ٢١٤٩ .
وسنن الترمذي – كتاب الأدب – باب ما جاء في نظرة الفجأة – ٣٥٦/٤ – حديث رقم ٢٧٨٦ – وقال أبو عيسي هذا حديث حسن غريب .
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب القدر – باب (وحرام علي قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) – ٣٤٢/١٣- حديث رقم ٦٦١٢ .
وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب القدر – باب قدر علي ابن آدم حظه من الزني وغيره – ١٧٦/١٦ – حديث رقم ٢٦٥٧ – ولفظه (إن الله كتب علي ابن آدم حظه من الزني. أدرك ذلك لا محالة. فزني العينين النظر وزني اللسان النطق. والنفس تمني وتشتهي. والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ١٨٦/١٢ – ١٩١ باختصار

﴿زِينَتِهِنَّ﴾ فنبه به علي أن الذي لأجله نهي عنه أن يعلم زينتهن من الحلي وغيره وفي الآية فوائد الفائدة الأولي : لما نهي عن استماع الصوت الدال علي وجود الزينة فلأن يدل علي المنع من إظهار الزينة أولي.

الثانية: أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب إذ كان صوتها أقرب إلي الفتنة من صوت خلخالها، ولذلك كرهوا أذان النساء لأنه يحتاج فيه إلي رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك .

الثالثة: تدل الآية علي حظر النظر إلي وجهها بشهوة إذا كان ذلك أقرب إلي الفتنة.][1].

وإذا أضعفت النفس ونالت حظاً من الفتن فهي مطالبة بالرجوع الدائم والتوبة لخالقها فهو سبحانه من يعفو ويغفر ولذلك قال سبحانه في ختام التحذير من الوقوع في الفتن :

[﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في التوبة وجهان :

أحدهما: أن تكاليف الله تعالي في كل باب لا يقدر العبد الضعيف علي مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا ينفك من تقصير يقع منه، فلذلك وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا .

والثاني : قال ابن عباس رضي الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة، فإن قيل قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يجب ما قبله فما معني هذه التوبة ؟ قلنا: قال بعض العلماء إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة، لأنه يلزمه أن يستمر علي ندمه إلى أن يلقي ربه][2] .

(١) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ٢٠٣/٢٣ .
(٢) المرجع السابق – ٢٠٣/٢٣ .

ثانياً: التحذير من دخول بيوت الغير دون استئذانهم والتأكد من رضاهم وترحيبهم:

قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1]

ففيها توجيه لمراعاة الأوقات والأحوال اللائقة للزيارة وعدم اقتحام البيوت فجأة وطلب الإذن واستشعار الأنس والترحيب من أهل البيت .

[لما خصص الله سبحانه ابن آدم الذى كرمه وفضله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملكهم الاستمتاع بها علي الإنفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا علي ما فيها من خارج أو يلجوها من غير إذن أربابها، أدبهم بما يرجع إلي الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم علي عورة][2].

عن أبي سعيد الخدري قال : " كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسي فزعاً، فقلنا له ما أفزعك ؟ فقال أمرني عمر أن آتيه فأتيته، فاستأذنت ثلاثاً، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال ما منعك أن تأتيني ؟ فقلت قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي. وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتيني علي هذا بالبينة، أو لأعاقبنك. فقال أبي لا يقوم معك إلا أصغر القوم، قال فقام أبو سعيد فشهد له "[3] .

---

(١) سورة النور – الآيتان (٢٧-٢٨) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن – الإمام القرطبي – ١٢/١٧٥ .
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب الاستئذان – باب التسليم والاستئذان ثلاثاً – ١٢/٢٩٠ – حديث رقم ٦٢٤٥ .
وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الآداب – باب الاستئذان - حديث رقم ٢١٥٣ .

وعند عدم الإذن بالدخول فالرجوع أولي منعاً للإطلاع علي أسرار وأحوال لا يرغب أصحابها اطلاع غيرهم عليها وفى ذلك سمو بالنفس عما لا ينبغي لها أن تقع فيه .

ولذا قال سبحانه: [﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وذلك لأنه كما يكون قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف علي الباب قد يكرهه، فلا جرم كان الأولي والأزكى له أن يرجع إزالة للإيحاش والإيذاء][1] .

ثالثاً: الحث علي الزواج من الصالحين ووعده سبحانه بإغنائهم من فضله .

قال تعالي: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] .

وفي هذا توجيه للمسلمين جميعاً بإعانة الصالحين الذين يطلبون إعفاء أنفسهم ووعد بالغني منه سبحانه لأنه هو من يملك الرزق وطالما اتخذ العبد طريق العفاف فإنه طريق لتطهير المجتمع من الفاحشة فعلي الجميع مساعدته لإنشاء الأسرة التي هي من أهم مقومات صلاح المجتمع .

وليس بالضرورة أن يكون الغني مادياً فقد يكون معنوياً ويتحقق بالرضي والقناعة وشعور الاستقرار والسكينة والمودة والرحمة بين الزوجين والقبول والرعاية والعناية من الخالق سبحانه .

وقيل في معني الغني في هذه الآية [الأصح أن هذا ليس وعداً من الله تعالي بإغناء من يتزوج بل المعني لا تنظروا إلي فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم، والمال غاد ورائح، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح، فهذا معني صحيح وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغني حتى لا يكون فيه خلف، وروي عن قدماء الصحابة ما يدل علي أنهم رأوا ذلك وعداً، عن

(١) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ١٩٣/٢٣ .
(٢) سورة النور – الآية (٣٢) .

أبي بكر قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغني، وقال طلحة بن مطرف: تزوجوا فإنه أوسع لكم في رزقكم وأوسع لكم في أخلاقكم ويزيد في مروءتكم، فإن قيل: فنحن نري من كان غنياً فيتزوج فيصير فقيراً ؟ قلنا الجواب عنه من وجوه: أحدهما: أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿التوبة/٢٨﴾ المطلق محمول علي المقيد، وثانيهما: أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه يكون خاصاً في بعض المذكورين دون البعض وهو في الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون.

وثالثهما: أن يكون المراد الغني بالعفاف فيكون المعني وقوع الغني بملك البضع والاستعانة به عن الوقوع في الزنا][1] .

ووعدهم سبحانه بفضله العظيم فقال تعالي: [﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالمعني أنه سبحانه في الإفضال لا ينتهي إلي حد تنقطع قدرته علي الإفضال دونه، لأنه قادر علي المقدورات التي لا نهاية لها، وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الإفضال والرزق][2] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " ثلاثة حق علي الله عونهم المجاهد في سبيل الله والمكاتب الذي يريد الأداء والناكح الذي يريد العفاف "[3] .

وقد اتخذ الشرع الحكيم جميع الاحتياطات الحيلولة ون وقوع فاحشة الزنا حفاظاً علي الأنساب ووقاية من الأمراض الحسية والمعنوية التي تصيب القلوب بالخبث والقبح والدناءة والخسة .

---

(١) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ٢٠٨/٢٣ – ٢٠٩ باختصار .
(٢) المرجع السابق – ٢٠٩/٢٣ .
(٣) سنن الترمذي – كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله إياهم – ٢٤٧/٣ – حديث رقم ١٦٦١ – قال أبو عيسي : حديث حسن . =
= وأخرجه ابن ماجة – سنن ابن ماجة – الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة ٢٠٧ – ٢٧٥ هـ - كتاب العتق – باب المكاتب – ١٣١/٣ – حديث رقم ٢٥١٨ – حقق أصوله وخرج أحاديثه علي الكتب الستة ورقمه حسب المعجم المفهرس وتحفة الأشراف: الشيخ خليل مأمون شيحا – دار لمعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي – ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

ولذا قال ﷺ : " أيما امرأة ألحقت بقوم من ليس منهم فليست من الله في شئ ولن يدخلها جنته وإيما رجل أنكر ولده، وقد عرفه احتجب الله منه يوم القيامة، وفضحه علي رؤوس الأشهاد "[١] .

(١) سنن ابن ماجة – كتاب الفرائض – باب من أنكر ولده – ٢١١/٣ – حديث رقم ٢٧٤٣ .

المبحث الخامس

الوصية الخامسة (النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق)

قتل النفس هو تعريضها للهلاك بكل أنواعه فالشرك بالله قتل للنفس بتعريضها لغرب الخالق سبحانه وقتل الأولاد خشية الفقر هو قتل للأنفس التي خلقها سبحانه وكتب لها الرزق والعمر والعمل وحكم عليها قبل نشأتها أنها سبب للفقر ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وقتل النفس أيضاً بتعريضها لارتكاب فاحشة الزنا وفساد الأخلاق وضياع الأنساب واختلاطها وضياع الحقوق وارتكاب المحرمات فيحرم قتل النفس بكل أنواع القتل إلا إذا ارتكبت ما يوجب قتلها فحينئذ تستحق القتل .

وقد بين سبحانه أنه من قتل نفساً واحدة فكأنه قتل الناس جميعاً لأن النفس الواحدة لها حق الحياة وهي بنيان الله الذي كرمه ولعن من هدمه .

قال تعالي: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1] .

[وخص بني إسرائيل بالذكر – وقد تقدمتهم أمم قبلهم كان قتل النفس فيهم محظوراً – لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوباً، وكان قبل ذلك قولا مطلقاً فغلظ الأمر علي بني إسرائيل بالكتاب بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء. ومعني ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى بغير أن يقتل نفساً ويستحق القتل. وقد حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أو زني بعد إحصان، أو قتل نفس ظلماً وتعدياً. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى شرك، وقيل: قطع طريق.

(١) سورة المائدة – الآية (٣٢) .

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ اضطرب لفظ المفسرين في ترتيب هذا التشبيه لأجل أن عقاب من قتل الناس جميعاً أكثر من عقاب من قتل واحداً فروي عن ابن عباس أنه قال: المعني من قتل نبياً أو إماماً عدل فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياه بأن شدَّ عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعاً. وعنه أيضاً أنه قال: المعني من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس. وقيل: المعني أن من استحل واحداً فقد استحل الجميع لأنه أنكر الشرع .

وفي قوله تعالي: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ تجوُّز فإنه عبارة عن الترك والإنقاذ من هَلَكَة وإلا فالإحياء حقيقة – الذي هو الاختراع – إنما هو لله تعالي][1] .

فبهذا تحفظ الأرواح وتصان الأنفس ويعم الأمن بين أفراد المجتمع .

وقد شرعت العقوبات لمن لم تردعه نفسه عن الاعتداء علي الأنفس المسالمة الطيبة التي لم ترتكب شراً ولم تؤذ أحداً .

ففي قتل هذه النفس اعتداء علي الناس جميعاً لأن الله سبحانه قد أعطاها الحق في الحياة وهو وحده من يملك إنهاء هذه الحياة وتدخل البشر لإنهائها بغير حق هو اعتداء علي ذلك الحق فكأنه قتل جميع الناس ومن يدافع عن هذا الحق فكأنما أحيا الناس جميعاً. وأخذ الحق بالقصاص المشروع هو إحياء للأنفس لأنه يترتب عليه منع الجريمة وعقوبة القاتل فيها ردع لغيره فهي في ذاتها إحياء للأنفس ذات الحق في الحياة .

" كل المسلم علي المسلم حرام: دمه وماله وعرضه "[2]

(١) الجامع لأحكام القرآن – الإمام القرطبي – ١٢٩/٦-١٣٠ باختصار

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي – ولفظه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : " لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علي بيع بعض. وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوي ههنا " ويشير إلي صدره ثلاث مرات " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم علي المسلم حرام. دمه وماله وعرضه " – كتاب البر والصلة – باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله – ١٠٣/١٦ – حديث رقم ٢٥٦٤ .

وحفظ النفس من الأمور التي حرصت الشريعة علي مراعاتها وصيانتها وحرمت الاعتداء عليها بجميع الوجوه .

وقوله تعالي: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ عام في كل تنفس وإن كان داخلاً في الخطاب بالنهي عن قتل الأولاد وقد سبق في الآية ولكنه لشدة إنكاره وتعظيم أمره أعيد التحذير منه في النفس عامة وتشمل كل نفس علي وجوه الأرض لها حق في الحياة .

وقيل في تفسيرها: [واعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش إلا أنه تعالي أفرده بالذكر لفائدتين: إحداهما: أن الإفراد بالذكر يدل علي التعظيم والتفخيم، كقوله ﴿وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ ﴿البقرة/٩٨﴾

والثانية:أنه تعالي أراد أن يستثني منه ولا يتأتي هذا الاستثناء في جملة الفواحش.

قوله: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى قتل النفس المحرمة قد يكون حقاً لجرم يصدر منها. والحديث أيضا موافق له هو قوله عليه الصلاة ولسلام: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة "[1] .

والقرآن دل علي سبب رابع، وهو قوله تعالي: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ﴾ ﴿المائدة/٣٣﴾ .

- وسنن أبي داود - كتاب الأدب – باب في الغيبة – ١٢٥/٥ – حديث رقم ٤٨٨٢ .
- وسنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في شفقة المسلم علي المسلم – ٣٧٢/٣ – حديث رقم ١٩٣٤ .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب الديات – باب قول الله تعالى: (إن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والسن بالسن والجروح قصاص) -١٨٣/١٤ – حديث رقم ٦٨٧٨ .
- وصحيح مسلم بشرح الإمام النووى – كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ما يباح به الدم – ١٣٨/١١ – حديث رقم ١٦٧٦ .

والحاصل: أن الأصل في قتل النفس هو الحرمة وحله لا يثبت إلا بدليل منفصل. ثم إنه تعالي لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذي يقرب إلي القلب القبول، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ لما في هذه اللفظة من اللطف والرأفة، وكل ذلك ليكون المكلف أقرب إلي القبول، ثم أتبعه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف، ومنافعها في الدين والدنيا.][1]

فمنهج القرآن الكريم يربط التشريعات بمصلحة الفرد وتعود الفائدة لصالح أفراد المجتمع كافة ويربط هذه التشريعات بالعقل الذي يقضي بالتأني في المعاملات وإتباع الأوامر والنواهي الإلهية ليهيئ للإنسان حياة آمنة مستقرة تراعي فيها الحرمات وتصان الدماء فإذا أمن الإنسان علي نفسه سعي في الحياة بكل قوته وطاقته وعمل وأنتج وساهم في إعمار الأرض طالما أعطاه ربه الحق في الحياة ووعده بالرزق وهو وحده سبحانه المتصرف في حياة العبد وهذه وصاياه لكل ذي عقل وفهم وتدبر .

وقد أكدت آيات القرآن الكريم حرمة القتل في مواضع كثيرة منها قوله تعالي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[2] .

[الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة، والحِلّ إنما يثبت بسبب عارضى فلما كان الأمر كذلك لا جرم نهي الله عن القتل مطلقاً بناء علي حكم الأصل، ثم استثني عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الأسباب العرضية فقال: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فنفتقر ههنا إلي بيان أن الأصل في القتل التحريم، والذي يدل عليه وجوه:

الأول : أن القتل ضرر والأصل في المضار الحرمة لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿الحج/٧٨﴾ ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ﴿البقرة/١٨٥﴾ .

(١) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ١٩٢/١٣ – ١٩٣ باختصار
(٢) سورة الإسراء – الآية (٣٣) .

الثاني: أن الآدمي خلق للاشتغال بالعبادة لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿الذاريات/٥٦﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: " حق علي العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً "[١] .

والاشتغال بالعبادة لا يتم إلا عند عدم القتل .

الثالث:أن القتل إفساد فوجب أن يحرم لقوله تعالي:﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ ﴿الأعراف/٨٥﴾ .

الرابع: أنه إذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا علي أن جانب الحرمة راجح، ولولا أن مقتضي الأصل هو التحريم وإلا لكان ذلك ترجيحاً لا لمرجح وهو محال .

الخامس: أنَّا إذا لم نعرف في الإنسان صفة من الصفات إلا مجرد كونه إنساناً عاقلاً حكمنا فيه بتحريم قتله، وما لم نعرف شيئاً زائداً علي كونه إنساناً لم نحكم فيه بحل دمه، ولولا أن أصل الإنسانية يقتضي حرمة القتل، وإلا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الأصل في القتل هو التحريم. وأن حله لا يثبت إلا بأسباب عرضية .

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالي حكم بأن الأصل في القتل هو التحريم فقال:﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فقوله:﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ نهى وتحريم، وقوله:﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إعادة لذكر التحريم علي سبيل التأكيد، ثم استثني عنه الأسباب العرضية الاتفاقية فقال:﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾][٢] .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب ما جاء في دعاء النبي صلي الله عليه وسلم أمته إلي توحيد الله تبارك وتعالي – ولفظه عن معاذ بن جبل قال النبي : " يا معاذ أتدري ما حق الله علي العباد ؟ " قال : الله ورسوله أعلم قال : " أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه ؟ " قال الله ورسوله أعلم قال : " ألا يعذبهم " -١٥/٢٩٤ – حديث رقم ٧٣٧٣.
وصحيح مسلم بشرح الإمام النووي – كتاب الإيمان – باب الدليل علي أن من مات علي التوحيد دخل الجنة قطعا – ١/١٩٨ – حديث رقم ٣٠ .
(٢) مفاتيح الغيب – الإمام الرازي – ٢٠/١٦٣ – ١٦٤ باختصار وتصريف يسير .

المبحث السادس

الوصية السادسة :(الأمر بحفظ مال اليتيم)

اليتم ضعف واليتيم ضعيف ووحيد ويفتقر إلي الرعاية والاهتمام والحرص عليه وعلي مصالحه وماله وحقوقه في الحياة .

ومما شرعه الإسلام رعاية اليتيم وصيانة أمواله وتنميتها والإنفاق عليه منها حتى يصل إلي القوة البدنية والعقلية التي تؤهله لتسلمها وتنميتها وصيانتها. وبذلك يكون الولي قد قام بدوره في رعايته أولا والحفاظ علي المجتمع المتماسك ثانياً لأنه إذا أنشأ يتيماً سوياً خلقيا وعقلياً وأعطاه حقه في وقته الصحيح فقد أنقذه من الضياع وقدم للمجتمع فرداً قوياً صالحاً سليماً نفسياً ودينياً قادراً علي القيام بدوره ككل أفراد المجتمع.

واليتيم في اللغة : [اليُتم : انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفي سائر الحيوانات من قبل أمه. قال تعالي : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ﴿الضحي/٦﴾، ﴿وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿الإنسان/٨﴾ وجمعه: يتامي. قال تعالي: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿النساء/٢﴾ وكل منفرد يتيم، يقال درة يتيمة، تنبيها علي أنه انقطع مادتها التي خرجت منها، وقيل: بيت يتيم تشبيها بالدرة اليتيمة.][1] .

وجاءت الوصية برعاية حال اليتيم وحفظ أمواله وتنميتها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم فقال تعالي : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [أى بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال في هذا فإنه جامع .

(١) مفردات ألفاظ القرآن – العلامة الراغب الأصفهاني – ص ٨٨٩ باختصار .

قال مجاهد: بالتجارة فيه، ولا تشتري منه ولا تستقرض. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني قوته، وقد تكون فى البدن وقد تكون فى المعرفة بالتجربة، ولابد من حصول الوجهين، فإن الأشُدّ وقعت هنا مطلقة. وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة "النساء" مقيدة، فقال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ ﴿النساء/٦﴾ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد فلو مُكّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهواته وبَقِي صُعْلوكاً لا مال له. وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال بفقيد الأب أوْلَى وليس بلوغ الأشد يبيح قرب ماله بغير الأحسن لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة. وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله .

والمعنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن علي الأبد حتى يبلغ أشده .

وفي الكلام حذف فإذا بلغ أشدَّه وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله .

واختلف العلماء في أشُدّ اليتيم فقال ابن زيد بلوغه، وقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده. وعند أبي حنيفة: خمس وعشرون سنة .][1]

وقد أهتم القرآن الكريم ببيان شدة الحرص في التعامل مع اليتيم فلم يأت النهى عن أكل مال اليتيم أو إتلافه أو تعريضه للهلاك بل جاء النهى عن مجرد القرب منه وفيه من التحذير الشديد ما يجعل القائم علي أمر اليتيم يضع نصب عينيه مصلحته ورعايته وتنمية أمواله واستثمارها فى كل ما يصلحه ويصلح له وقد اعتنت الشريعة الإسلامية برعاية اليتيم والحفاظ علي أمواله وجاء ذلك في مواضع كثيرة فى القرآن الكريم .

(١) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ١١٠/٧ .

قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ﴾[1] .

وقد اشتملت هذه الآية علي عدة توجيهات هامة كلها تأتي في مصلحة اليتيم من حيث التنشئة السليمة والحرص علي ما ينفعه :

١-اختبار اليتيم في صغره وتعليمه ما يصلحه .

٢-عند ملاحظة اكتمال عقله ونضجه وقوة بنيانه لا بأس من إعطائه أمواله بعد تنميتها واستثمارها .

٣-النهي عن الاستيلاء علي مال اليتيم أو إتلافه أو إهماله وتعريضه للهلاك .

٤-إذا كان الولىّ القائم علي مصلحة اليتيم غنياً فليستعفف عن أخذ مقابل لخدمته أما إذا كان فقيراً فليأخذ ما يضطر إليه ولكن مع مراعاة أن يكون بالمعروف وليراقب ربه في جميع أحواله .

٥-عليه أن يُشهد علي إعطاء اليتيم ماله في حال كونه صالحاً لإدارة شئون نفسه وماله وصيانة حقوقه .

٦-كفى بالله حسيباً ومراقباً ومجازياً للولىّ علي إصلاحه لمال اليتيم أو إفساده له.

ومما قيل في تفسير هذه الآية: [وابتلوا اليتامي يعنى اختبروا اليتامي وجربوا عقولهم، حتي إذا بلغوا النكاح يعني الحلم ويقال: مبلغ الرجال فإن آنستم منهم رشداً يقول: إذا رأيتم منهم رشداً، وصلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم فادفعوا إليهم أموالهم التي معكم ولا تأكلوها إسرافاً في غير حق وبداراً يعني مبادرة في أكله أن يكبروا يعني

(١) سورة النساء – الآية (٦) .

مخافة أن يكبروا فيأخذوا أموالهم منكم. ومن كان غنياً فليستعفف أى يحفظ نفسه عن مال اليتيم ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

وقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية، وقالوا فيها ثلاثة أقوال .

قال بعضهم: يجوز للمعسر أن يأكل علي قدر قيامه عليه .

وقال بعضهم: لا يجوز أن يأكل إلا علي وجه القرض، ويرد عليه إذا كبر .

وقال بعضهم لا يجوز في الأحوال كلها .

فأما من قال إنه يجوز أكله علي قدر قيامه فإنه احتج بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إنى أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم – المراد منه بيت المال – فمن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

وأما من قال إنه يجوز أكله علي وجه القرض احتج بما روى عن محمد بن سيرين أنه قال: سألت عبيدة السلمانى عن قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: هو قرض ثم يرد عليه إذا كبر. فقال: ألا ترى أنه قال في سياق الآية ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾. وقال أبو العالية: ما أكل فهو دين عليه. وأما من قال إنه لا يجوز أكله، فلأن الله تعالي قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿النساء/١٠﴾ وتلك الآية محكمة وهذه من المتشابهة، لأنه يحتمل التأويل أنهم يأكلون علي وجه القرض أو على وجه الإباحة، فيرد حكم المتشابه إلي المحكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني إذا أدرك اليتامي ودفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ علي ذلك، وإنما الإشهاد علي معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى شهيداً في أمر الآخرة، وأما في أمر الدنيا ينبغي أن يشهد العدول علي ذلك لدفع القال عن نفسه، لأن الله تعالي لا يشهد له في الدنيا][1].

قال ﷺ : " من ولي يتيماً له مال فليتجر فيه، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة "[2] .

ولشدة التحذير من الاستيلاء علي مال اليتيم أو إتلافه وإهلاكه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[3] .

ظلم اليتيم بكل أنواع الظلم وصفة القرآن بأن مصيره النار في الدنيا والآخرة فهو في الدنيا كأنه يأكل ناراً تحرق جوفه وما أشد قسوة هذا التعبير في تصوير حال الولىّ الذي يستولي علي مال اليتيم بأخذه أو إهلاكه أو إفساده. وهو في الآخرة مصيره إلي النار المسعَّرة التي تشوى البطون والجلود فهو محاط بالنار والخوف والفزع لا ينجيه من هذا العذاب إلا الحذر الشديد والاحتياط والتقوى في التعامل مع مال اليتيم في الدنيا رجاء النجاة في الآخرة .

فمدار الأمر كله يعود إلي مراعاة الضمير ومراقبة الخالق سبحانه واستشعار قربه في كل قول وعمل .

[وإنما خص الأكل بالذكر، لأنه معظم المقصود، وقيل: عبر به عن الأخذ .

قال سعيد بن جبير: ومعني الظلم: أن يأخذه بغير حق .

وأما ذكر " البطون " فللتوكيد، كما تقول: نظرت بعيني، وسمعت بأذني .

وفي المراد بأكلهم قولان :

---

(١) تفسير السمرقندي- بحر العلوم – أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفي ٣٧٣هـ)- ٢٨٢/١-٢٨٣- باختصار – بدون بيان عن الطبعة .

(٢) سنن الترمذى – كتاب الزكاة – باب ما جاء في زكاة مال اليتيم – ٦٤١/٢٥/٢ – عن عبدالله بن عمرو بن العاص – وقال وفي إسناده مقال لأن المثني بن الصباح يضعف في الحديث – تحقيق دكتور/ بشار عواد معروف – طبعة دار الغرب الإسلامى – بيروت .

(٣) سورة النساء – الآية (١٠) .

أحدهما: أنهم سيأكلون يوم القيامة ناراً، فسمي الأكل بما يؤول إليه أمرهم، كقوله تعالي: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[١] .

قال السدى : يبعث آكل مال اليتيم ظلماً، ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه، وأذنيه، وأنفه، وعينيه، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم.

والثاني: أنه مَثَل. معناه: يأكلون ما يصيرون به إلي النار .

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ المعني: سيحرقون بالنار، ويُشْوَوْنَ .

والسَّعِير : النار المستعرة، واستعار النار: توقدها .

وقد توهم قوم لا علم لهم بالتفسير وفقهه أن هذه الآية منسوخة، لأنهم سمعوا أنها لما نزلت تحرج القوم عن مخالطة اليتامى، فنزل قوله تعالي: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾[٢] وهذا غلط وإنما ارتفع عنهم الحرج بشرط قصد الإصلاح لا علي إباحة الظلم][٣] .

ولبيان الفئة التي نزلت فيها هذه الآية قيل :

[قال ابن زيد: نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورثون النساء والصغار، ويأكلون أموالهم، وقال أكثر الناس: نزلت في الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم، وهي تتناول كل آكل وإن لم يكن وصياً، وسمي آخذ المال علي وجوهه آكلاً لما كان المقصود هو الأكل وبه أكثر الإتلاف للأشياء، وفي نصه علي البطون من الفصاحة تبيين نقصهم، والتشنيع عليهم بضد مكارم الأخلاق، من التهافت بسبب البطن، وهو أنقص الأسباب وألأمها حتى يدخلوا تحت الوعيد بالنار، وظلماً معناه: ما جاوز المعروف مع فقر الوصي، وقال بعض الناس: المعني أنه لما يؤول أكلهم

(١) سورة يوسف – الآية (٥٦) .
(٢) سورة البقرة – الآية (٢٢٠) .
(٣) زاد المسير فى علم التفسير – جمال الدين أبو الفج عبدالرحمن بن على بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧هـ) – المحقق عبدالرازق المهدى ٣٧٧/١ باختصار – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولي ١٤٢٢ هـ .

للأموال إلي دخولهم النار قيل: يأكلون النار، وقالت طائفة: بل هي حقيقة أنهم يطعمون النار، وفي ذلك أحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدرى قال: (حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسرى به، قال: رأيت أقواماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار، تخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هم الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً)[1]

﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ والصلى هو التسخن بقرب النار أو بمباشرتها.

﴿السَّعِيرِ﴾: الجمر المشتعل، وهذه آية من آيات الوعيد][2]

واليتيم بحق هو من فقد أبواه ولم يجد من يتولي أمره ويرعاه ويقوم علي مصالحه.

وقد يكون الولد أبواه علي قيد الحياة ولكن مع الإهمال والتخلي وترك المسئولية يحيط به شعور اليتم من كل جانب وقد عبر الشعر عن ذلك في أبيات تصور هذه الحالة :

ليس اليتيم من انتهي أبواه — من هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذي تلقي له — أماً تخلت أو أباً مشغولا[3]

(١) الشريعة – لأبي بكر الآجرى – المتوفي (٣٦٠هـ) – جزء من حديث طويل في الإسراء – باب ذكر ما خص الله عز وجل به النبي – ١٥٢٩/٣ – حديث رقم ١٠٢٧ – طبعة دار الوطن – الرياض – السعودية – الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطيه الأندلسي المحاربي (المتوفي: ٥٤٢هـ) ١٤/٢-١٥ باختصار – المحقق عبدالسلام عبدالشافي محمد – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولي – ١٤٢٢ هـ .

(٣) الشوقيات – أحمد شوقي – ص ٦٣١ – تحقيق وتبويب وضبط د/ علي عبدالمنعم عبدالحميد – طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان .

المبحث السابع

الوصية السابعة (حفظ الكيل والميزان)

العبادات والمعاملات كلها راجعة إلي العقيدة السليمة الراسخة فأوامر الله سبحانه ونواهيه تخدم العقيدة وتشبتها في قلب المؤمن لأن اتباعها هو امتثال لأمر الخالق سبحانه الذي آمنت به وصدقته .

والعبادات والمعاملات هي كلها من مقومات الدين ونتائج مباشرة لرسوخ العقيدة في قلب المؤمن .

وفي قوله تعالي: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني [بالعدل والتسوية ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عسر عليكم فعليكم بما في وسعكم ما وراءه معفو عنكم][1] .

[وقيل القسط هنا أدني زيادة ليخرج بها عن العهدة بيقين .

﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى إلا ما يسعها ولا تعجز عنه، ولما كانت مراعاة الحد من القسط الذى لا زيادة فيه ولا نقصان يجري فيها الحرج ذكر بلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه، فالواجب في إيفاء الكيل والميزان هو القدر الممكن وأما التحقيق فغير واجب .

وقيل: المعني لا نكلف ما فيه تلفه وإن جاز فعلي هذا لا يكون راجعاً إلي إيفاء الكيل والميزان .][2]

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفي: ٦٨٥هـ) – ١٨٩/٢- المحقق : محمد عبدالرحمن المرعشلي – دار إحياء التراث العربي بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٨ هـ .

(٢) البحر المحيط في التفسير – أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى :٧٤٥هـ) – ٦٨٩/٤ باختصار – المحقق: صدقي محمد جميل – الناشر دار الفكر بيروت- الطبعة ١٤٢٠ هـ .

[وإيفاء الكيل إتمامه خلاف البخس. وقوله : (والميزان) أى الوزن بالميزان. فإن قيل: إيفاء الكيل والوزن هو عين القسط فما فائدة التكرار؟ قلنا أمر الله المعطي بإيفاء إيتاء ذى الحق حقه من غير نقصان وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة .

ثم قال: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ ليعلم أن الواجب هو القدر الممكن من العدالة والسوية لا التحقيق المؤدى إلى الحرج والعسر][1] .

ومن أحوال الأنبياء مع أممهم ما يوضح ذلك الأمر .

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

جاء النبي إلي قومه داعياً إلي عبادة الخالق سبحانه ومعه كل ما يؤكد صدقه وهم في ذات الوقت مكبلون بالشرك وفساده الذى طغى علي معاملاتهم في البيع والشراء والإفساد في الأرض وإضلال غيرهم عن طريق الحق وصدهم عن سبيل الله .

بدأ أولاً بدعوتهم إلي عبادة الله وحده وتوحيده والإقرار بأنه سبحانه الخالق المدبر لهذا الكون والمشرع لأمور دينهم ودنياهم يرجعون لأوامره في شئون حياتهم .

يتدرج بهم بعد تثبيت العقيدة في عقولهم وقلوبهم إلي ما يصلح لهم ويصلحهم من معاملات تضعهم علي طريق الاستقامة وتنقذهم من الضلال والإفساد في الأرض وفتنة غيرهم عن طريق الحق المستقيم .

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى (المتوفى: ٨٥٠هـ) – ١٨٩/٣ المحقق: الشيخ زكريا عميرات – الناشر دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي ١٤١٦ هـ .

(٢) سورة الأعراف – الآية (٨٥) .

[والبينة كل ما يتبن به الحق، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات .

وبعد أن أتى شعيب صلوات الله عليه بالمعجزات القاطعة للعذر ومكابرة الحق رتب علي ذلك قوله: ﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ وقد ثني الأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا بعد أن أمرهم بتوحيد الله، لأن ذلك كان فاشياً فيهم أكثر من سائر المعاصي ومن ثم اهتم به كما اهتم لوط بنهي قومه عن الفاحشة التي كانت فاشية فيهم، فقد كانوا من المطففين الذين إذا اكتالوا علي الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أى ينقصونه فيبخسونهم أشياءهم وينقصونهم حقوقهم .

والبخس يشمل نقص المكيل والموزون وغيرهما من المبيعات كالمواشي والأشياء المعدودة، ويشمل البخس في المساومة .

والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وفي الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل.

وقد روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ويقولون هذه زيوف فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس أى بالنقصان .

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ أى إنه تعالي أصلح حال البشر بنظام الفطرة ومكنهم في الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح، وبما أودع في خلق الأرض من سنن حكيمة، وقوانين مستقيمة، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم في المعاملات والاجتماع، وبما أرشد إليه المصلحين من العلماء والحكماء الذين يأمرون بالقسط، ويهدون الناس إلي ما فيه صلاحهم في دينهم، والعاملين من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة الذين ينفعون الناس في دنياهم .

فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغي ولا عدوان علي الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش، ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام وبث الخرافات والجهالات التي تقوّض نظم المجتمع، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا .

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى ذلكم الذى تقدم من الأمر والنهي خير لكم في دينكم ودنياكم، فإن ربكم لا يأمر إلا بالنافع ولا ينهي إلا عن الضار .

وإنما يكون ذلك خيراً لكم إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله وبرسوله وبما جاءكم من شرع وبما آتاكم به من هدى. فالإيمان يقتضي الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله وإن خالف النفس والهوى][1] .

والوفاء بالكيل والميزان من أنواع الأمانات فإن أداء الحقوق أمانة الضمير اليقظ في التعامل وهي سبب نقاء القلب وتتحقق بها البركة في الدنيا بنماء الرزق والمال وحسن المآل في الآخرة .

وعلي عكس ذلك كله فإن الغش في الكيل والميزان ينزع البركة من العمر والمال والرزق حتى وإن كان يبدو كثيراً لكنه محقت منه البركة وزرع الخداع وعدم الثقة في المجتمع كله .

وبالتجربة توصَّل التجار إلي هذه الحقيقة أن البركة في الأمانة وأن العائد المادى الزائد نتيجة الغش وسرعان ما يذهب بالبركة ويمحق آثارها ويبقي صاحبها خبيثاً منبوذا فاقداً لقيمة الحياة بعزة وكرامة وإذا أضيف الاعتقاد السليم العائد إلي العقيدة القوية والإيمان الراسخ في قلبه كان ذلك أعلي قيمة وأكثر ثواباً وكان العمل مؤيداً بالاعتقاد وذلك أقوى رسوخاً ومنزلة للمخلوق عند خالقه سبحانه.

قال تعالي: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[2]

(١) تفسير المراغي – أحمد بن مصطفي المراغي (المتوفي ١٣٧١هـ) ٢٠٩/٨-٢١٠ باختصار – الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي – مصر – الطبعة الأولي – ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ م .
(٢) سورة الإسراء – الآية (٣٥) .

[أى أتموا الكيل ولا تخسروه وقت كيلكم للناس وزنوا بالقسطاس المستقيم، قال الزجاج: هو ميزان العدل، أى ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها، وقيل: هو العدل نفسه، والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلي إيفاء الكيل والوزن، وهو مبتدأ وخبره خير أى: خيركم عند الله وعند الناس يتأثر عنه حسن الذكر وترغيب الناس في معاملة من كان كذلك، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: أحسن عاقبة من آل إذا رجع .][1]

وقيل في معني الآية أيضاً: [﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أى أتموه إذا كلتم لغيركم ولا تبخسوه وزِنُوا بالقسطاس المستقيم أى بالميزان السوىّ بلا اعوجاج ولا خديعة ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أى لكم في معاشكم لانتظام أموركم بالعدل، وإيفاء الحقوق أربابها ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى عاقبة ومآلاً إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة .][2]

فإذا انتشر الظلم في الحقوق فإنه فساد للمجتمع كله لأن دائرة الظلم ستدور وتلحق بالظالم لأنه كما للناس عنده حقوق فهو له حقوق عند غيره وهكذا يعم الفساد وينتشر الظلم ويحل عليهم غضبه سبحانه وبئس المصير في الدنيا وفي الآخرة .

ولأنه لا غني للناس عن المعاملات التي هي أساس الحياة كان التأكيد علي مراعاة الحقوق ومراقبة الخالق سبحانه ففي قوله تعالي: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ تأكيد علي هذا الخلق الكريم .

[أى وزنوا بالميزان العدل دون شئ من الجور أو الحيف، لأن جميع الناس محتاجون إلي المعاوضات والبيع والشراء، ومن ثم بالغ الشارع في المنع من التطفيف والنقصان، سعياً في إبقاء الأموال لأربابها .

(١) فتح القدير – محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني (المتوفي: ١٢٥٠هـ) – ٢٦٩/٣ باختصار – دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٤ هـ .

(٢) محاسن التأويل – محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفي : ١٣٣٢هـ) -٤٦٠/٦ – المحقق: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبقة الأولي – ١٤١٨ هـ .

ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى إيفاؤكم بالعهد، وإيفاؤكم من تكيلون له، ووزنكم بالعدل لمن توفون له، خير لكم في الدنيا من نكثكم وبخسكم في الكيل والوزن، لأن ذلك مما يرغّب الناس في معاملتكم، وحب الثناء عليكم .

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أى وأجمل عاقبة، لما يترتب علي ذلك من الثواب في الآخرة، والخلاص من العقاب الأليم وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة، أقبلت عليهم الدنيا، وحصل لهم الثروة والغني، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها.][1] .

[ويؤخذ من عموم المعني النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة .][2]

ووصف العدل والوفاء في الكيل بأنه خير لأن [خير تفضيل، أى خير من التطفيف، أى خير لكم. فضل علي التطفيف تفضيلا لخير الآخرة الحاصل من ثواب الامتثال علي خير الدنيا الحاصل من الاستفضال الذي يطففه المطفف، وهو أيضاً أفضل منه في الدنيا لأن انشراح النفس الحاصل للمرء من الإنصاف في الحق أفضل من الارتباح الحاصل له باستفضال شئ من المال .

ومعنى كون ذلك ﴿أَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أن النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن وفي مضار الإيفاء فيهما ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء استقر وآل إلي أن الإيفاء بهما خير من التطفيف، لأن التطفيف يعود علي المطفف باقتناء جزء قليل من المال ويكسبه الكراهية والذم عند الناس وغضب الله

(١) تفسير المراغي – أحمد بن مصطفي المراغي – (المتوفي: ١٣٧١هـ) – ٤٥/١٥ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدى (المتوفى: ١٣٧٦هـ) – ٤٥٧/١ – المحقق : عبدالرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولي ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

والسحت في ماله مع احتقار نفسه في نفسه، والإيفاء بعكس ذلك يكسبه ميل الناس إليه ورضي الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة في ماله][1].

وقد توعَّد الله المطففين في الكيل والوزن بالعذاب الشديد الذي ينتظرهم يوم القيامة فقال تعالي: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] .

[قال أحد الأنصار رضى الله عنه كنا أسوأ الناس كيلاً، حتي إنه ليكون لأحدنا مكيالان مكيال يشترى به وآخر يبيع به، وما إن نزلت فينا ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى أصبحنا أحسن كيلاً ووزناً .

فقوله تعالي: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ يتوعد سبحانه وتعالي بوادٍ في جهنم يسيل صديد أهل النار الذين يبخسون الناس الكيل والميزان أى ينقصونهم ويبينهم تعالي بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أى اشتروا منهم يأخذون كيلهم وافياً وكذا إذا وزنوا ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أى ينقصون ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ المطففون ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من قبورهم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾هو يوم الدين والجزاء والحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خاشعين ذليلين ينتظرون حكمه فيهم، ويطول بهم الموقف المائة سنة وأكثر وإن أحدهم ليلجمه العرق إلجاماً ومنهم من يصل العرق إلي نصف أذنيه][3] .

---

(١) التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ) – ٩٩/١٥ باختصار – الدار التونسية للنشر – ١٩٨٤ م .

(٢) سورة المطففين – الآيات (١-٦) .

(٣) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير – جابر بن موسي بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري – ٥٣٣/٥ – ٥٣٤ باختصار – مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية – الطبعة الخامسة – ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣ م .

فيا له من مصير في غاية الخزى والهوان فى يوم لا ينفع فيه الرجوع ولا الندم ولا رد الحقوق ولا التوبة .

وقال تعالي: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[١] .

والمعني: [وأقيموا أوزانكم بالعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه بالتطفيف، نهي عن الطغيان، الذي هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران، الذي هو تطفيف ونقصان][٢] .

(١) سورة الرحمن – الآية (٩) .

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أبو العباسي أحمد بن محمد بن المهدى بن عجيبة الحسنى الأنجرى الفاسى الصوفى (المتوفى: ١٢٢٤هـ) ٢٦٨/٧ – الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة – الطبعة ١٤١٩ هـ .

المبحث الثامن

الوصية الثامنـة (العدل في القول والفعل)

من الأخلاق التي تخاطب الضمير وتوقظه وتحثه علي الثبات في مواجهة عاطفة القرابة والميل إلي ذوى القربى بالدفاع عنهم والاستنصار بهم مما يدعو أحياناً غلي الشهادة بغير الحق .

وقد تدعو العداوة أيضاً إلي قول غير الحق في مواجهة الخصم المخالف وهذا القول هو الشهادة فهي إما بالحق كما أمر الخالق سبحانه وإما بغيره كما وسوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء .

قال تعالي: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾

الخالق سبحانه يعلم تكوين خلقه وضعفهم البشري الذى يجعل الميل الفطرى للقرابة من باب التناصر والتراحم لأنهم جميعاً ضعفاء يحتاجون لقوة القرابة ليقوى بعضهم بعضا ومن هنا قد يجد نفسه في موقع يوجب عليه قول الحق والشهادة لهم أو عليهم، أو الحكم بينهم وبين غيرهم وهنا يأتي الأمر الإلهي الصريح ليقويه ويؤيده ويحثه علي قول الحق والحكم بالعدل وأداء حق الخالق سبحانه دون الميل إلي القرابة أو الظلم لغيرهم .

ومعني الآية [﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة أو نحوهما ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أى المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ أى ذا قرابة منكم ولا تميلوا نحوهم أصلاً][1].

وجاء في تفسيرها: [﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أى والثامن مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم هو أن تعدلوا في القول إذا قلتم قولاً في شهادة أو حكم علي أحد، ولو

(١) تفسير أبي السعود – إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي (المتوفي: ٩٨٢هـ)- ١٩٩/٣ – دار إحياء التراث العربي .

كان المقول في حقه ذلك القول صاحب قرابة منكم، فالعدل واجب في الأقوال كما أنه واجب في الأفعال كالوزن والكيل، لأنه هو الذى تصلح به شئون الناس، فهو ركن العمران وأساس الملك وقطب رحي النظام للبشر في جميع أمورهم الاجتماعية، فلا يجوز لمؤمن أن يحابي فيه أحداً لقرابته ولا لغير ذلك][1] .

وقال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2] .

[ومعني كون الشهادة لله أن يتحري فيها الحق الذي يرضاه ويأمر به من غير مراعاة ولا محاباة لأحد ﴿وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أى : كونوا شهداء بالحق لوجه الله وامتثال أمره وإتباع شرعه الذى تنال به مرضاته ومثوبته، ولو كانت الشهادة علي أنفسكم بأن يثبت الحق عليكم ومن أقرّ علي نفسه بحق، فقد شهد عليها لأن الشهادة إظهار الحق أو علي والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم، فإنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقربين أن يعانوا علي ما ليس لهم بحق بالإعراض عن الشهادة عليهم أو ليّها والتحريف فيها لأجلهم، وإنما البر والصلة فى الحق والمعروف، والذين يتعاونون علي الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس علي ظلمهم وهضم حقوقهم فتكون المحاباة في الشهادة من أسباب فشو الظلم والعدوان، وذلك من المفاسد التي لا يأمن شرها أحد من الناس، وضررها عام وإن كان يريد المحابي بها نفع أهله أو الشفقة علي فقير أو العصبية لغني، ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ وشرعه أحق أن يتبع فيهما فلا تحابوا الغني طمعاً في بِرّه، ولا خوفاً من شره ولا الفقير

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفي: ١٣٥٤هـ ١٦٩/٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠ م .
(٢) سورة النساء – الآية (١٣٥) .

عطفاً عليه ورحمة به، فمرضاة الفقير ليست خيراً لكم ولا له من مرضاة الله تعالي، ولا أنتم أعلم بالفقير ومصلحته من ربه عز وجل .

﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ﴾ أى فلا تتبعوا الهوى وميل النفس إلي أحد ممن كلفتم العدل فيهم، أو الشهادة لهم أو عليهم، كراهة أن تعدلوا، بل آثروا العدل علي الهوى، فبذلك يستقيم الأمر في الورى أولا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل فالهوى مذلة الأقدام، ﴿وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى وإن تلووا أمر الشهادة وتؤدوها أو تعرضوا عن تأديتها وتكتموها، فإن الله كان خبيراً بعملكم لا يخفى عليه قصدكم ونيتكم فيه.

ولم يقل عليماً لأن الخبرة هى العلم بدقائق الأمور وخفاياها فهى التي تناسب هذا المقام الذى تختلف فيه النيات ويكثر فيه الغش والاحتيال حتى إن الإنسان ليغشي نفسه ويلتمس لها العذر في كتمان الشهادة أو التحريف فيها][1] .

وقال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2] .

والمعني: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، أى بالإخلاص لله في كل ما تعملون من أمر دينكم ودنياكم. شهداء بالحق والعدل بلا محاباة ولا جور، سواء للمشهود له أو عليه، أى أدوا الشهادة بالعدل لأن العدل هو ميزان الحقوق، إذ متى وقع الجور في أمة انتشرت المفاسد فيما بينها، والشهادة: الإخبار بالواقعة وإظهار الحق أمام الحاكم ليحكم به .

ولا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم علي ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في معاملتكم مع كل أحد، صديقاً كان أو عدواً .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – محمد رشيد رضا – ٣٧٢/٥-٣٧٣ باختصار وتصريف .
(٢) سورة المائدة آية (٨) .

وعدلكم أقرب للتقوي من تركه، أى العدل في معاملة الأعداء أقرب إلي اتقاء المعاصي علي الوجه العام .

واتقوا الله أى اتخذوا وقاية من عذابه في جميع أعمالكم، فإن الله خبير بما تعملون لا يخفي عليه شئ من أعمالكم، وسيجزيكم علي ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر][1] .

فالإسلام لا يمنع التوادّ والتراحم ورعاية ذوى القربي وإنما يمنع أن تتخذ القرابة دافعاً لمخالفة الحق ومانعه من قول الصدق وداعية للكذب في الشهادة لهم أو عليهم والظلم في الحكم بينهم وبين غيرهم .

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – د/ وهبة بن مصطفي الزحيلي – ١١٨/٦ – ١١٩ باختصار – دار الفكر المعاصر – دمشق – ١٤١٨ هـ

المبحث التاسع
الوصية التاسـعة (الوفاء بالعهـد)

من الأخلاق التي يصلح بها الفرد والمجتمع الوفاء بالعهد ويشمل العهد مع المخلوقات ومع الخالق سبحانه وتعالي .

العهد في اللغة: [العهد : حفظ الشئ ومراعاته حالاً بعد حال وسمى المَوْثِقُ الذى يلزم مراعاته عهداً .

قال تعالي: ﴿وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ ﴿الإسراء/٣٤﴾، أى أوفوا بحفظ الأيمان، وقال: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿البقرة/١٢٤﴾، أى لا أجعل عهدى لمن كان ظالماً، وعهد فلان إلى فلان يعهد، أى: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، وعهد الله تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسنة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ﴾ ﴿التوبة/٧٥﴾، وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين عهدة.][1] .

قال تعالي: ﴿وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

[فيه قولان: أحدهما: أن عهد الله كل ما أوجبه الإنسان علي نفسه من نذر وغيره .

الثاني: أنه الحلف بالله أن يلزم الوفاء به إلا في معصية][2] .

فكل ما سبق من الوصايا داخل في عهد الله فالعبودية لله وحده عهد مع الله أخذه علي البشر حين خلقهم وبر الوالدين والإحسان إليهما وحرمة قتل النفس إلا بالحق

(١) مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الصفهانى – ٥٩١ – ٥٩٢ باختصار .
(٢) تفسير الماوردى (النكت والعيون) – أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردى (المتوفى: ٤٥٠هـ) ١٨٨/٢ – المحقق : السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

والبعد عن الزنا والحرص علي رعاية اليتيم وأمواله وحرمه الاستيلاء عليها وقول الحق في الشهادة وعدم الميل والجور والظلم لصالح ذوى القربى ضد غيرهم .

وقيل في معني العهد: [أى ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أى : الذى ذكر في هذه الآيات ﴿وَصَّاكُم﴾ بالعمل ﴿بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون فتأخذون بما أمرتكم به][1].

فالعهد كل ما وجب علي العبد أداؤه لخالقه من عبادات ومعاملات وأخلاق فأداء العبادات وفاء بالعهد الذى ألزم الإنسان به نفسه أمام خالقه حينما اختار أن يكون مسلما معتقداً جازم الاعتقاد بعبوديته لخالق واحد متفرد بالألوهية .

وكذلك الأخلاق التي تفرد بها العبد المسلم هي عهد له مع ربه نتيجة اتصافه بالإيمان الذي يرقي أخلاقه ويسمو بها ليجعله جديراً بوصف الإيمان .

ويظهر وفاؤه بالعهد في المعاملات بينه وبين غيره من البشر ففيها يظهر خلق المسلم ومن الجدير بالذكر أن التاجر الأمين الصادق كان سببا في نشر الإسلام بخلقه أكثر من غيره من الأساليب فالخلق الطيب يكسب القلوب ويجذبها برفق بدلا من العنف والقسوة .

قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2] .

[هذه الآية تأمر المؤمنين بأن يوفوا بالعهود التي أخذت عليهم بمقتضي الإيمان، وهي الطاعة لله تعالي ولرسوله، والقيام بالتكليفات الشرعية، فالعقد هو كل ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان في الأحكام التكليفية أم من العهود التي يلتزم بها العباد، وبذلك تشمل ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء، وما يتبادلان فيه الالتزام،

(١) السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير – شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربينى الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) – ٤٥٨/١ – مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة – ١٢٨٥ هـ .

(٢) سورة المائدة – الآية (١) .

كالبيع والإجارة، وغيرهما، وتشمل ما يلتزمه المؤمن من صدقات، وما يلزمه الوفاء به بحكم الإيمان، فإن الإيمان ميثاق يلتزم فيه العبد بالطاعة، فإذا عصي فقد نقض ذلك الميثاق وذلك كما كان يفعل اليهود من نقص للمواثيق المؤكدة، وإن الأصل اللغوي لمعني كلمة عقد أنه ربط لطرفي شئ، ومنه العقدة، وأطلقه القرآن علي كل الأحكام الواجبة الطاعة لها، لأنها تشمل معني الربط، لأن المؤمن بمقتضي إيمانه قد عاهد الله تعالي علي طاعته، والأخذ بكل ما يأمر به، وبكل ما ينهي عنه .

والعقد علي هذا: كل ارتباط يرتبط به المؤمن بموجب النقل أو بموجب العقل، سواء أكان بينه وبين نفسه بمقتضي إيمانه وخلقه وإنسانيته، أم كان بينه وبين غيره، وكل هذا واجب الوفاء بحكم الله تعالي، فأوامر الله تعالي ونواهيه واجبة الوفاء، وعقود الإنسان مع غيره واجبة الوفاء إلا أن يكون فيها مخالفة لأمر الله تعالي ونهيه، لقول النبي ﷺ : " المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً "[1] .

ولقوله ﷺ : " كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، ولو كان مائة شرط "[2] .

والعقد معناه في استعمال القرآن الارتباط، والعقود والعهود والمواثيق والمعاهدات والمحالفات والتعهدات والأتفاقات والالتزامات كلها في استعمال القرآن والاصطلاح الشرعي ألفاظ متقاربة المعني المراد بها الارتباطات، سواء أكانت ارتباطات بين أفراد أو حكومات، وسواء أكانت ارتباطات علي عمل أو علي كف عن عمل .

---

(١) سنن الترمذي – كتاب الأحكام – باب ما ذكر عن رسول الله □ في الصلح بين الناس – ٧٣/٣ – حديث رقم ١٣٥٧ ولفظه عن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله □ قال: " الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا أو أحل حراماً. والمسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراماً) قال أبو عيسي: هذا حديث حسن صحيح .

(٢) سنن ابن ماجة – كتاب الأحكام – باب المكاتب – ١٣١/٣ – ١٣٢ – حديث رقم ٢٥٢١ – ولفظه: عن عائشة زوج النبي □: أن بريرة أتتها وهي مكاتبة، قد كاتبها أهلها على تسع أواق، فقالت لها: إن شاء أهلك عددت لهم عدة واحدة، وكان الولاء لي .

قال: فأتت أهلها، فذكرت ذلك لهم، فأبوا إلا أن تشترط الولاء لهم، فذكرت عائشة ذلك للنبي □ فقال: "افعلي" قال: فقام النبي □ فخطب الناس، فحمد الله وأثني عليه، ثم قال: " ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط، كتاب الله أحق، وشرط الله أوثق، والولاء لمن أعتق " .

والإيفاء بالعقد معناه تنفيذ ما يقتضيه والقيام بما يوجبه وافياً تاماً غير منقوص .

وقد ذكر سبحانه العقود التي أمر بالإيفاء بها بصيغة العموم ولم يخصصها بنوع لتشمل كل ارتباط يرتبط به المؤمن، سواء أكان ارتباطه مع نفسه أم ارتباطه مع فرد آخر، وسواء أكان ارتباط حكومتهم علي عمل، أو كف عن عمل، ولهذا قال المحققون من المفسرين: العقود التي أمر الله المؤمنين أن يوفوا بها تشمل أربعة أنواع:

الأول : العقود التي عقدها المؤمن مع ربه بسبب إيمانه. فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد التزم لله بأن يطيعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإحلال ما أحله وتحريم ما حرمه فهذا عقد بين المؤمن وربه. وسبب الالتزام فيه إيمانه .

وإلي هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

الثاني : العقود التي عقدها المؤمن مع نفسه بسبب حلفه علي أن يفعل فعلاً أو يكف عن فعل، أو نذره أن يفعل فعلا أو يكف عن فعل، فكل من حلف علي فعل أو نذر فعلاً فقد التزم أن يبرَّ بيمينه، وأن يوفى بنذره. سبب الالتزام يمينه أو نذره. وإلي هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ .

الثالث : العقود التي يعقدها الأفراد بعضهم مع بعض من بيع وإجارة ورهن وشركة ومضاربة وزواج ونحوها، فكل من ارتبط مع غيره بعقد فعليه أن ينفذ موجب هذا العقد ولا يخل بشئ مما يقتضيه، وسبب الالتزام عقده بإرادته واختياره .

الرابع : العقود التي تعقدها الحكومة الإسلامية مع غيرها من الحكومات في السلم والحرب، فإذا تعاقدت دولة إسلامية مع أية دولة علي أحكام عسكرية أو مدنية،

(١) سورة المائدة – الآية (٧) .

دفاعية أو هجومية، إيجابية أو سلبية، فعلي الحكومة أن توفي بعقودها، وتنفذ التزاماتها .

فالله سبحانه أمر المؤمنين بأن يوفوا بكل الارتباطات التي يرتبطون بها أفرادً أو جماعات أو حكومات، مع ربهم، أو مع أنفسهم، أو مع أبناء نوعهم .][1]

والعقد في اللغة: [عقدت الحبل عقداً من باب ضرب فانعقد والعُقْدة ما يمسكه ويوثقه ومنه قيل عقدت البيع ونحوه وعَقَدْت اليمن وعقَّدتُها بالتشديد توكيد وعاقته علي كذا وعقدته عليه بمعني عاهدته. ومعقد الشئ مثل مجلس موضع عُقدَةٍ وعقدة النكاح وغيره إحكامه وإبرامه][2] .

[والعقد : الضمان، والعهد، والجمل المُوَثَّق الظهر .

وموضع العقد: وهو ما عُقد عليه .][3]

قال تعالي: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولا﴾[4]

[انتهت الآية بالأمر بالوفاء بالعهد، وهو لفظ عام يشمل كل عهد ووعد وعقد بين الإنسان وربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، فالوفاء بالعهد وتنفيذ شروط العقد من الإيمان وإن تنفيذ العهد مطلوب ممن عُوهد أو عُهد إليه، ومعناه تنفيذ مقتضاه، والحفاظ عليه علي الوجه الشرعي، وبحسب التراضي الذي لا يصادم أصول

(١) زهرة التفاسير – محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفي: ١٣٩٤هـ) – ٢٠٠٨/٤ – ٢٠١١ باختصار وتصرف – دار الفكر العربي .

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي أبو العباس (المتوفي: نحو ٧٧٠هـ) – ٤٢١/٢ – المكتبة العلمية – بيروت .

(٣) القاموس المحيط – مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفي: ٨١٧هـ) – ٣٠٠/١ باختصار – تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – بإشراف : محمد نجيب العرقسوسى – مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة – ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

(٤) سورة الإسراء – الآية (٣٤) .

الشرع، خلافاً لمن يتهاون بالعقود ويتخلص منها وينقضها إذا تبدل وجه المصلحة، فذلك ذنب عظيم وجرم كبير، يتساهل به من لا دين له ولا خلق ولا كرامة][١] .

ومن شدة التأكيد علي ضرورة الوفاء بالعهد للحفاظ علي المجتمع من الانهيار والحرص علي إظهار خلق الصدق في المعاملات لأنه خلق المسلم الحق، جاء ذكر الوفاء بالعهد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم .

قال تعالي: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]

[من هؤلاء المؤمنين رجال عاهدوا الله علي الثبات في القتال مع الرسول فوفوا بما عاهدوا، فمنهم من نال شرف الاستشهاد، ومنهم من بقي حياً ينتظر أن ينال هذا الشرف، وما بدلوا عهد الله الذي قطعوه علي أنفسهم، ولا غيروا منه شيئاً .

ليجزي الله المؤمنين الصادقين بصدقهم في إيمانهم ووفائهم بعهدهم، ويعذب المنافقين – إن شاء – أو يوفق المستعد منهم إلي التوبة، إن الله كان غفوراً بقبول التوبة. رحيماً بالعفو عن المعصية][٣] .

وقال تعالي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤] .

والمعني: [ومن أتم عهده وأدى واجبه كاملاً فله جزاء الحسنى، وسيؤتيه ربك أجراً عظيماً، حتى يرضى][١] .

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلى – د/وهبة بن مصطفي الزحيلي – ١٣٤٦/٢ – دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولي – ١٤٢٢ هـ .

(٢) سورة الأحزاب – الآيتان (٢٣-٢٤) .

(٣) المنتخب في تفسير القرآن الكريم تأليف لجنة من علماء الأزهر – ٦٢٦/١ – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر – طبع مؤسسة الأهرام – الطبعة الثامنة عشر – ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

(٤) سورة الفتح – الآية (١٠) .

ونخلص من هذا إلي أن إتمام العهد وتنفيذه هو من باب البرّ والصدق والوفاء والإخلاص للخالق سبحانه ولجميع المخلوقات وهو خلق كريم جديد بأن يتخلق به المؤمن في كل أحواله ومعاملاته. والإخلال به وعدم تنفيذه هو من باب الغدر والخداع والكذب علي الخالق سبحانه وجميع المخلوقات وهو خلق مذموم من أخلاق المنافق المخادع الكاذب .

وقال ﷺ : " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان "[٢] .

عن أبي هريرة قال رسول ﷺ : " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفي منه ولم يوفه أجره "[٣] .

(١) التفسير الواضح – محمد محمود حجازى – ٤٨٣/٣ – دار الجيل الجديد – بيروت – الطبعة العاشرة – ١٤١٣ هـ .
(٢) سنن ابن ماجة – كتاب الجهاد – باب الوفاء بالبيعة – ٢٥٥/٣ – حديث رقم ٢٨٧٢ .
(٣) المرجع السابق – كتاب الرهون – باب أجر الأجراء – ١٠٢/٣- ١٠٣ – حديث رقم ٢٤٤٢ .

المبحث العاشر

الوصية العاشرة (الالتزام بوصايا القرآن الكريم هي الصراط المستقيم)

قال تعالي: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] .

الصراط المستقيم هو عنوان الدين، وهو الأساس الذى يشمل كل ما سبق من الوصايا فهو العقيدة الصحيحة والمعاملات الطيبة والنيات الصادقة فيما يصدر من الإنسان تجاه ربه ووالديه وأبنائه وغيرهم .

من سلكه واهتدي به وفارق الطرق المعوجة هُدى إلي الصلاح وعُصم من الضياع وسلم من الحيرة والذلل .

وقيل في تفسير الصراط المستقيم: [وفي الصراط قولان: أحدهما: أنه القرآن . والثاني : الإسلام .

فأما " السبل " فقال ابن عباس: هي الضلالات .

وقال: مجاهد: البدع والشبهات .

وقال مقاتل: أراد ما حرَّموا علي أنفسهم من الأنعام والحرث .

" فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ " : أى فتضلكم عن دينه][2] .

[والصراط: الطريق، فطريق الله تعالى مستقيم، والمستقيم أقرب طريق يوصل إلى الحق، كما أن الخط المستقيم أقرب خط بين نقطتين .

والإشارة إلى ما يبينه الله من ضلال الذين يحرمون ما أحل الله، وبيان ما أحل وما حرم وبيان ضلال من قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وما بينه الله تعالي من نهى عن الشرك، وطلب الإحسان إلي الوالدين، والنهي عن قتل الأولاد من إملاق، والنهي

(١) سورة الأنعام – الآية (١٥٣) .
(٢) زاد المسير في علم التفسير – ابن الجوزي – ٩٣/٢ – باختصار .

عن القرب من الفواحش والنهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، والأمر بالإحسان إلي اليتيم ووفاء الكيل والميزان، والعدل في القول والوفاء بعهد الله .

كل هذه المعاني أو جماعها هو طريق الله تعالي وهو طريق مستقيم][1] .

[والصراط: الطريق الذى هو دين الإسلام. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نصب علي الحال، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه. فأمر بإتباع طريقه الذي طرقه علي لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة.

وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلي تلك الطرق أفضت به إلي النار.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أى تميل .

عن عبدالله بن مسعود قال: (خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، ثم قال: " هذا سبيل الله " ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ علي كل سبيل منها شيطان يدعو إليها " ثم قرأ هذه الآية)[2] .

وعن جابر بن عبدالله قال: (كنا عند النبي ﷺ فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله – ثم تلا هذه الآية – ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[3]][4] .

(١) زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ٢٧٤١/٥ .
(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل – ١٥٦/٤ – حديث رقم ٤١٤٢ – تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر – طبعة دار الحديث – القاهرة – الطبعة الأولي – سنة ١٤١٦ هـ .
وسنن الدرامي – باب في كراهية أخذ الرأي – ٢٨٥/١ – حديث رقم ٢٠٨ – طبعة دار المغني للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولي سنة ١٤١٢ هـ .
(٣) سنن ابن ماجة – المقدمة – كتاب السنة – باب إتباع سنة رسول الله ﷺ – ٢٩/١-٣٠ – حديث رقم ١١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – ١١٢/٧ باختصار .

[وهذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضه للذلل ومظنة لسوء المعتقد][1] .

عن العرباض بن سارية: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا ؟ قال: " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنْ عبداً حبشياً، فإنه من يعشي منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة "[2].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: " دعونى ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم علي أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم "[3].

[يقول تعالي ذكره: هذا الذى وصاكم به ربكم من قوله لكم: " وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل "

وصاكم به ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تتقون، يقول: لتتقوا الله في أنفسكم فلا تهلكوها، وتحذروا ربكم فيها فلا تسخطوه عليها، فيحل بكم نقمته وعذابه][4] .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية – ٣٦٤/٢ .
(٢) سنن أبي داود – كتاب السنة – باب في لزوم السنة ١٢/٥ – ١٣ – حديث رقم ٤٦٠٧ .
(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخاري – كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة – باب الاقتداء بسنن النبي ﷺ عليه وسلم – ١٧٦/١٥ – حديث رقم ٧٢٨٨ .
(٤) جامع البيان في تأويل القرآن – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملى، أبو جعفر الطبرى (المتوفى: ٣١٠هـ) – ٢٢٩/١٢ – المحقق: أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولي – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

[﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله، وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية، ولعلكم أن ترجو رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ثم اهتدي][١].

[لتكونوا علي رجاء إصابة التقوى، ذكر أولا تعقلون ثم تذكرون ثم تتقون لأنهم إذا عقلوا تفكروا ثم تذكروا أى اتعظوا فاتقوا المحارم .][٢]

وقد ختمت الآيات التي تضمنت الوصايا بقوله تعالي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

[وفي قوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأُوَل لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والمحرمات الأُخَر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوى][٣] .

إذا فالآيات الثلاث المشتملة علي المحرمات قد ختمت بالدعوة إلي إعمال العقل والتدبر والنظر فى عاقبة تلك الأمور المنهي عنها وبيان أن إتباع أوامره سبحانه واجتناب نواهيه في سبيل صلاح حال الفرد والأسرة والمجتمع والعالم أجمع وذلك هو الذى يوصل إلي التقوى كما ختمت بها الآية الثالثة وهي سبيل كل خير وفلاح وهي غاية الدين التي يسعي إلي تثبيتها في القلوب فمراقبة الخالق سبحانه في السر والعلن هى طريق الفوز بحياة هادئة وخاتمة صالحة ، فاتباع سبيل الله يساوى التقوى .

(١) زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة – ٢٧٤٣/٥ .
(٢) تفسير النسفى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) – أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفى (المتوفى :٧١٠هـ) – ٥٤٩/١ – حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوى – راجعه وقدم له: محي الدين ديب مستو – دار الكلم الطيب – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – ابن عطية – ٣٦٤/٢ .

الخاتمـة

الحمد لله أولا وأخراً على أن وفقنى في عرض هذا الموضوع الذي يحتاج إلي معرفته والوقوف علي أهميته كل مسلم مهتم بتصحيح عقيدته ومعاملاته ليسير علي الصراط المستقيم المؤدى إلي السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة .

وقد وقفت من خلال هذا البحث علي عدة نتائـج منها :

١-من أهم مقومات الدين تثبيت العقيدة فى قلب المؤمن .

٢-البر بالوالدين مكانته عظيمة ودليل ذلك ربطه بعبادة الخالق سبحانه وحده .

٣-كما أن العبادات هي أساس الدين فكذلك المعاملات لاغنى للمسلم عنها فى حياته .

٤-صيانة الأعراض والدماء وحرمة النفس البشرية وحفظها من كل أنواع الهلاك والفساد .

٥-حفظ الأمانات بكل أنواعها والوفاء بالعهود القولية والفعلية .

٦-الوفاء في الكيل والميزان والشهادة والحقوق العامة والخاصة .

٧-المحافظة علي أموال اليتامى وحقوقهم وتنميتها واستثمارها حتى يصلوا لمرحلة الرشد ويتسلموها ويحافظوا عليها .

٨-إتباع الحق هو الطريق المستقيم المؤدى للسعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ الذى بين لنا ما سطره القرآن الكريم وما رواه لنا من سنته المشتملة على تعاليم الدين .

وقد حاولت جهدى أن يخرج هذا البحث فى أحسن صورة كى ينتفع به المسلمون فإن كنت قد وفقت فمن الله وحده وبفضله ومنته وإلا فحسبى أنى قد حاولت الخير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

قائمــة المصـادر والمراجـع

أولاً: القرآن الكريم جلَّ من أنزله

ثانياً: التفسـير

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكنى الشنقيطى (المتوفى ١٣٩٣ هـ) – الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .
- البحر المحيط في التفسير – أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ) – المحقق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – الطبعة ١٤٢٠ هـ .
- التحرير والتنوير– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ) الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤ م .
- التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب – للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري – الرازي الشافعي – ٥٤٤ – ٦٠٤ هـ – قدَّم له/ هاني الحاج – حققه وعلق عليه وخرَّج أحاديثه/ عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية – القاهرة بدون بيان عن الطبعة .
- الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي – لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي – تقديم/ هاني الحاج – حققه وخرَّج أحاديثه/ عماد زكي البارودي، خيري سعيد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون بيان عن الطبعة .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى (المتوفى: ٦٨٥ هـ) المحقق: محمد عبدالرحمن المرعشلى – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ .
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – د/ وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر– دمشق – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ .

• تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي – (المتوفى: ١٣٧٦هـ) – المحقق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

• تفسير المراغى – أحمد بن مصطفى المراغى (المتوفى: ١٣٧١ هـ) – الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابى الحلبي وأولاده – بمصر – الطبعة الأولى – ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦ م .

• جامع البيان عن تأويل آى القرآن – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبرى (المتوفى: ٣١٠هـ) – المحقق أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م .

• التفسير القيم – للإمام ابن القيم (٦٩١ – ٧٥١ هـ) – حققه/ محمد حامد الفقى، جمعه/ محمد أويس الندوى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م .

• الجواهر الحسان في تفسير القرآن – تأليف الإمام العلامة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي – حققه وخرج أحاديثه ووثق أصوله أبو محمد الغمارى الإدريسي الحسني – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

• أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير – جابر بن موسي بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري – مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية – الطبعة الخامسة – ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣ م

• البحر المحيط في التفسير – أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى:٧٤٥هـ) – المحقق: صدقي محمد جميل – الناشر دار الفكر بيروت– الطبعة ١٤٢٠ هـ

• البحر المديد في تفسير القرآن المجيد – أبو العباسي أحمد بن محمد بن المهدى بن عجيبة الحسنى الأنجرى الفاسى الصوفى (المتوفى: ١٢٢٤هـ) الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة – الطبعة ١٤١٩ هـ .

• التفسير الواضح – محمد محمود حجازى – دار الجيل الجديد – بيروت – الطبعة العاشرة – ١٤١٣ هـ .

• التفسير الوسيط للزحيلى – د/وهبة بن مصطفي الزحيلى – دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولي – ١٤٢٢ هـ .

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي – ٤٦٧ – ٥٣٨ هـ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بدون بيان عن الطبعة .

• السراج المنير في الإعانة علي معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير – شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربينى الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة – ١٢٨٥ هـ .

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطيه الأندلسي المحاربى (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق عبدالسلام عبدالشافى محمد – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولي – ١٤٢٢ هـ .

• المنتخب في تفسير القرآن الكريم تأليف لجنة من علماء الأزهر – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر – طبع مؤسسة الأهرام – الطبعة الثامنة عشر – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م.

• تفسير الماوردى (النكت والعيون) – أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردى (المتوفى: ٤٥٠هـ) المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

• تفسير أبي السعود – إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفي (المتوفى: ٩٨٢هـ) دار إحياء التراث العربي .

• تفسير السمرقندى– بحر العلوم – أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندى (المتوفى: ٣٧٣هـ) – بدون بيان عن الطبعة .

• تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلمونى الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠ م .

• تفسير النسفى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) – أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفى (المتوفى:٧١٠هـ) – حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوى – راجعه وقدم له: محي الدين ديب مستو – دار الكلم الطيب – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

• زاد المسير فى علم التفسير – جمال الدين أبو الفج عبدالرحمن بن على بن محمد الجوزى (المتوفى: ٥٩٧هـ) – المحقق عبدالرازق المهدى – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولي ١٤٢٢ هـ .

• زهرة التفاسير – محمد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) – دار الفكر العربى .

• صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الأولي – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م .

• غرائب القرآن ورغائب الفرقان – نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى (المتوفى: ٨٥٠هـ) – المحقق: الشيخ زكريا عميرات – الناشر دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي ١٤١٦ هـ .

• فتح القدير – الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير – تأليف : محمد بن علي بن محمد الشوكانى – طبعة جديدة مصححة ومنقحة مأخوذة عن مخطوطة

دار الكتب المصرية – طبعة دار الخير – بيروت – الطبعة الأولي ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

• محاسن التأويل – محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمى (المتوفى ١٣٣٢ هـ) – المحقق: محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

ثالثاً: علــوم القرآن

• بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (المتوفى ٨١٧هـ) – طبعة وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامى – الطبعة الثانية – رجب ١٤٠٦ هـ – مارس ١٩٨٦ م .

رابعاً: الحديث وشروحه

• الشريعة – لأبي بكر الآجرى – المتوفى (٣٦٠هـ) طبعة دار الوطن – الرياض – السعودية – الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ .

• المسند للإمام أحمد بن حنبل – تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر – طبعة دار الحديث – القاهرة – الطبعة الأولي – سنة ١٤١٦ هـ .

• النهاية في غريب الحديث والأثر – تأليف الإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري – المتوفى ٦٠٦هـ – خرج أحاديثه وعلق عليه/ أبو عبدالرحمن صلاح بن محمد بن عويضة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧ م .

• سنن أبي داود – للإمام الحافظ المصنف المتقن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى – ٢٠٢– ٢٧٥ هـ – إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد – دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م.

• سنن الترمذي وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل ومعه – الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية، وشفاء الغلل في شرح كتاب العلل – لأبي عيسي محمد بن عيسي بن سورة – المتوفى ٢٧٩ هـ – طبعة حقق أصولها المرحومان: أحمد شاكر، وفؤاد عبد الباقي، وأكملها الشيخ عبد القادر عرفان العشا حسونة – مراجعة وضبط وتصحيح/ صدقي محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

• سنن الترمذى – تحقيق دكتور/ بشار عواد معروف – طبعة دار الغرب الإسلامى – بيروت.

• سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني – ٢٠٧ – ٢٧٥ هـ – وبهامشه كفاية الحاجة في شرح ابن ماجة (حاشية السندي) ومصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري المتوفي سنة ٨٤٠هـ – تخريج وعناية/ صدقي جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

• سنن الدرامي – طبعة دار المغني للنشر والتوزيع – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولي سنة ١٤١٢ هـ .

• صحيح البخارى – ترقيم الأستاذ: محمد فؤاد عبدالباقى– طبعة طوق النجاة – الطبعة الأولي – سنة ١٤٢٢ هـ .

• صحيح مسلم بشرح الإمام أبى زكريا يحيي ابن شرف النووي – المتوفى ٦٧٦هـ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

• صحيح مسلم – تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي – طبعة دار إحياء التراث العربي– بيروت.

• فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للحافظ أحمد ابن على ابن حجر العسقلانى – ٣٧٣ – ٨٥٢ هـ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٦ هـ/١٩٩٦ م.

خامساً: كـتب العقيدة

• العقيدة الإسلامية – أركانها – حقائقها – مفسداتها – تأليف الدكتور مصطفي سعيد الخن – محي الدين ديب مستو – طبعه دار الكلم الطيب – دمشق حلبوني – الطبعة الثالثة – ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م .

• المختار من شرح البيجوري علي الجوهرة المسمي تحفة المريد علي جوهرة التوحيد – العلامة شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري – الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية – طبعة ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م

• دعوة التوحيد – أصولها – الأدوار التي مرت بها – مشاهير دعاتها] – محمد خليل هرَّاس – دار الباز للنشر والتوزيع – مكة المكرمة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤٠٦ هـ .

• دلائل التوحيد – للعلامة الشيخ محمد جمال الدين القاسمى – توفي ١٣٣٢ هـ – ضبط وتعليق وتخريج/ الشيخ خالد عبد الرحمن العك – دار النفائس – الطبعة الأولي ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م .

• شرح العقيدة الطحاوية – تأليف الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي – المتوفى سنة ٧٩٣ هـ – حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الحادية عشرة – ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

• عقيدة المؤمن – أبو بكر جابر الجزائرى – كتاب يبحث العقيدة الإسلامية علي ضوء الكتاب والسنة ويجلي حقائقها بأسلوب علمي ميسَّر واضح، علي أساس

من البرهنة الصادقة التي تقوم علي الأدلة المنطقية والنقلية الشرعية – دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة – بدون بيان عن الطبعة .

• لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية – شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية – تأليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي – (ترجمة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي مؤلف هذا الكتاب) طبعة المكتب الإسلامي بيروت – دار الخاني الرياض – الطبعة الثالثة – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

سادساً: كـتب الفقـه

• التعريفات الفقهية – تأليف محمد عميم الإحسان المجددي البركتي – ط دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان (١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م) الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

• الفقه الإسلامي وأدلته – تأليف الدكتور/ وهبه الزحيلي – الشامل للأدله الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها وفهرسة ألفبائية للموضوعات وأهم المسائل الفقهية – دار الفكر – دمشق – سورية، دار الفكر المعاصر – بيروت– لبنان– الطبعة الرابعة معدلة– ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

سابعاً: اللغة والمعاجم

• المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي أبو العباس (المتوفي: نحو ٧٧٠هـ) – المكتبة العلمية – بيروت .

• القاموس المحيط – مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (المتوفي: ٨١٧هـ) – تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – بإشراف: محمد نجيب العرقسوسى – مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الثامنة – ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .

• لسان العرب – للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري – دار صادر – بيروت – الطبعة السادسة – ٢٠٠٨ م .

• لسان العرب – للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى المصرى – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ط٣ – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م .

• مفردات ألفاظ القرآن – تأليف العلامة الراغب الأصفهاني – تحقيق : صفوان عدنان داوودى – دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت – ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م .

• معجم مقاييس اللغة – لأبى الحسين أحمد ابن فارس ابن زكريا – توفى سنة ٣٩٥ هـ – ضبط وتحقيق: عبدالسلام محمد هارون – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١١هـ/١٩٩١ م .

ثامنا : كتب البلاغة

• كتاب التعريفات – تأليف علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني المتوفي (٨١٦هـ) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ط أولى ، سنة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

تاسعا: التراجم والسير

- الأعلام – خير الدين الزركلى – دار العلم للملايين – مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر – بيروت – لبنان – الطبعة السادسة عشر – كانون الثانى – يناير ٢٠٠٥م .

تاسعاً: دواوين الشعر

- الشوقيات – أحمد شوقي – تحقيق وتبويب وضبط د/ علي عبدالمنعم عبدالحميد – طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان .